

مجلد علم العربی

(دمشق) ايلول : سنة ١٩٢٩ م الموافق للربيعين سنة ١٣٤٨ هـ ١٠٦

عبد الحميد الكاتب

- ٢ -

رسالته في نصيحة ولي العهد في الفصل الذي عقدناه في نشأة عبد الحميد الأكبر وعصره وكتابته وأسلوبه عرضنا للاستشهاد ببعض رسائله الصغيرة المأثورة . وهانحن اولاء نلوحى هنا تحليل أدبه من رسالتين كبيرتين مما أبقت الايام عليه . واغبطنا بعد اثني عشر قرناً ان نتعرف منه سعة مادة الكاتب العظيم وطول نفسه وبعد مرايمه في الثقافة وانه رجل مثنايع^(١) العلم آخذ من كل فن بنهيب وافر . والرسالتان هما رسالته في نصيحة ولي العهد ورسالته الى الكتاب . والاولى منها أطول رسالة ابقت عليها الايام من انشاء سيد الكتاب عبد الحميد الأكبر كتبها على لسان مروان الى ابنه وولي عهده عبد الله بن مروان ، لما وجهه الى قتال الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي وكان هذا استولى على الموصل وكورها سنة ١٢٧ . وقد انطوت هذه الرسالة المرفوعة على أغراض كثيرة يمكن اجمالها في موضوعين مهمين الاول درس عظيم في تربية أبناء الملوك والمظاء ونلقينهم الأخلاق الفاضلة وهي الضمان الاعظم لقيام الممالك . والثاني وضع خطوط حربية يسير عليها ولي العهد في قتال العدو ما ترى المحدثين في المحاربين بلغوا أكثر منها في باب الكر والفر . فأثبت عبد الحميد بهذه الرسالة انه من علماء التربية والاخلاق وعلماء النفس

(١) يقال رجل مثنايع العلم اذا كان يشبه علمه بعضه بعضاً .

وانه من علماء السياسة والادارة والحرب يستطيع ان يقود الجيوش بمقله كما يقود الممالك بمقله .

بدأ رسالته في وصف الخارجي وان الخليفة أراد ان يعهد الى ولي عهده عهداً يحمله فيه أدبه ويشرع له عظته وان كان ولي العهد في الغاية من الدين والتخلي بما يحسن بالخلافة ولولم يكن كذلك ماخصه ابوه بالولاية عنه دون بني ابيه . وقال له ان الخليفة يوعظه ابنه ايضاً اثنى بامر الله وما تقدمت فيه الحكماء من تقديم العظة والتذكير وان كانوا أهل معرفة واولي سابقة في الكمال وفضل في العلم قال : ولو كان المؤمنون اخذوا العلم من عند انفسهم ولقدوه إلهاماً من تلقائهم ولم يتعلموا شيئاً من عند غيرهم لخطأهم علم الغيب ووضعناهم بمنزلة قصيرهم بهما عنهم خالقهم المستأثر بعلم الغيب عنهم بوحدايته في فردانيته في الالهية . . . واستعماله ألفاظ الوجدانية والفردانية والالاهية من استعمال المحدثين لا عهد بها للعرب .

قال : وامير المؤمنين يرجو ان ينزهك الله عن كل قبح يهش له طمع ، وان يعصمك من كل مكروه حاق باحد ، وان يحصنك من كل آفة استولت على امريء في دين او خلق وان يبلغه فيك احسن مالم يزل يعود من آثار نعمة الله عليك سامية بك الى ذروة الشرف ومنجحة لك بسطة الكرم لاثمة بك في ازهر معالي الادب مورثة لك انفس ذخائر العز . وبعد ان كان الخليفة يخاطب ابنه بصيغة الغائب انقلب وخاطبه خطاب الحاضر فقال : (والله استخلف عليك واسأله حياتك وان يعصمك من زيف الهوى ويحضرك دواعي التوفيق معاناً على الارشاد فيه فانه لا يعين على الخير ولا يوفق له الا هو) . وهذا الانقلاب في تنويع الخطاب من اجمل ما يندر على أساليب افلام الكتاب . ذلك ان الخليفة بعد ان خاطب ابنه خطابه عاملاً من عماله عاد فذكر البتوة فدعا له دعاء والد لولده ليوفق في مقاصده ويسلم في بدنه .

ثم هونت عليه الامر وابان له قدر نفسه وما تيسر له من اسباب التفوق باخلاقه فقال : وقد تلقنتك اخلاق الحكمة من كل جهة بفضلها من غير تعب البحث في ادراكها ولا متطاول المنال لذروتها بل تأملت^(١) منها اكرم معانيها واستخلصت منها اعتق

(١) تأملت اكتسبت .

جواهرها ثم شمرت الى لباب مصاصها واحرزت منفس^(١) ذخايرها فافتقد ما احرزت ونافس فيما اصبت .

ومما قدمه له من العظة في ذلك ان يشكر الله في كل صباح على نعمة السلامة والعافية وان يقرأ فيه من كتاب الله جزءاً يردد فيه رأيه في ادبه . ويزين لفظه بقراءته ويحضر عقله ناظراً في محكمه ويفهمه متفكراً في منسابه . يريد بذلك تقوية عقيدته في الدين وتقوية ملكته في البلاغة .

وبعد ذلك النفث فقال : « ثم تعهد نفسك بمجاهدة هواك فانه مغلاق^(٢) الحسنات ومفتاح السيئات واعلم ان كل احوالك لك عدو يحاول هلكتك ويعترض غفلتك لانها خدع ابليس وحبايل مكره ومصايد مكيدة فاحذرها مجانباً لها ونوقها محتسماً منها واستعذ بالله من شرها وجاهدتها اذ اننا صرت عليك بعزم صادق لا ونية فيه وحزم نافذ لا مثنوية^(٣) لرأيك بعد اصداره عليك وصدق غالب لا مطمع في تكذيبه ومضاه صارمة لا آناة معها ونية صحيحة لا خليجة^(٤) شك فيها فان ذلك ظهري^(٥) صدق لك على ردها عنك وقطعها دون ما تشطع اليه منك وهي واقية لك من خطية ربك داعية لك رضا العامة ساترة عليك عيب من دونك فحاول بلوغ غايتها محوذاً لها بسبق الطلب الى اصابة الموضع حصناً اعمالك من العجب فانه رأس الهوى واول الغواية ومقاد الهلكة حارساً اخلافك من الآفات المتصلة بنساي العادات » .

« ومنها ان تملك امورك بالقصد وتصور ممرك بالكتمان وتداوي جندك بالانصاف وتذلل نفسك بالعدل وتحصن عيوبك بتقويم أودك وأناتك فوقها الملل وفوت العمل ومضاءتك فدرعها روية النظر وأكنفها بأناة الحلم وخلواتك فاحرسها من الغفلة واعتاد الراحة وصمتك فانف عنه عي^(٦) اللفظ وخف فيه سوء القسالة^(٧) واستماعك فارعه^(٨) حسن التفهم وقوة باسهاد الفكر وعطاءك فانه^(٩) له بيوتات الشرف وذوي الحسب

(١) منفس ما يتنافس فيه . (٢) المغلاق بكسر الميم ما يغلق به الباب . (٣) مثنوية استثناء . (٤) خليجة اضطراب . (٥) ظهري عدة . (٦) القالة يطلق القول في الخير والقال والقييل والقالة في الشر . (٧) اسمعه . (٨) نهدي الهدية عظيمها وأضخمها .

وتحرز فيه من السرف واستطالة البذخ وامتنان الصنيعة ، وحياءك فامنعه من الخجل
وبلادة الحصر ، وحلك فزعه عن التهاون ، واحضره قوة الشكينة ^(١) ، وعقوبتك فقصر
بها عن الافراط ، وتعمد بها اهل الاستمقاق ، وعفوك فلا تدخله تعطيل الحقوق ، وخذ
به واجب المفترض ، وأقم به أود الدين ، واستثناسك فامنع منه البذاءة وسوء المثافنة ^(٢) ،
ونعمتك امورك فحده اوقاتاً ، وقدره ساعات ، لا يستفرغ قوتك ، ويستدعي سأمك ،
وعزمتك فانف عنها عجلة الرأي ، ولجاجة الاقدام ، وفروحاتك فاشكها ^(٣) عن البطالة ،
وقيدها عن الزهد ، وروعاتك فخطها من دهش الرأي ، واستسلام الخضوع ، وحذرانك
فامنعها عن الجبن واعمد بها للعزم ، ورجاءك فقيده بخوف الفئات ، وامنعه من أمن
الطلب .

ثم ذكر له كيف يتغير عشراه وبعامل مشاوريه ، ويتوقى انتشار اخباره في العامة ،
الا على صورة لا تسقط من شأنه فقال : « ثم لتكون بطانتك وجلساؤك في خلواتك ،
ودخلاؤك في سرك ، اهل الفقه والورع من خاصة اهل بيتك وعامة قوادك ، ممن قد حنكتهم
السن بتصاريف الامور ، وخبطته فصالحا بين فراسن ^(٤) البزل منها ، وقلبته الامور في
فنونها ، وركب أطوارها عارفاً بمحاسن الامور ، ومواقع الرأي ، مأمون النصيحة ،
مطوي الغمير على الطاعة ، ثم احضرهم من نفسك وقاراً ، تستدعي منهم لك الهيبة ،
واستثناساً يعطف اليك منهم بالمودعة ، وانصاتهم بفعل إفاضتهم عندك بما تكره ان يندشر
عنيك من مخافة الرأي ، وخضباع الحزم ، ولا يغابن عليك هواك فيصرفك عن الرأي ،
ويقطعك دون الفكر . وتعلم انك وان خلوت بسر فالقيت دونه سترك ، وأغلقت عليه
أبوابك ، فذلك لا محالة مكشوف للعامة ، ظاهر عنك وان استتريت برحماً ولعل ، وما
أرى اذاعة ذلك ، فاعلم بما يرون من حالات من ينقطع به في تلك المواطن ، فنقدم

(١) الشكينة قوة القلب . (٢) المثافنة المباحنة وفي رواية المثافنة ومعناها الاذبة .

(٣) يقال فعل فلان امراً فشكنته اي أثبتته . (٤) الغرس جمع فراسن والجمع فراسن رجل

الجل والبزل كركم جمع بازل وهو البعير اذا ظهر نابه ومن المجاز الرجل الكامل في
تجربته .

في إحكام ذلك من نفسك وسد خلله عنك ، فانه ليس احد أسرع اليه سوء القالة ، ولغظ العامة بخير او شر ، ممن كان في مثل حالك ومكانك الذي أصبح فيه من دين الله ، والامل المرجو المنتظر فيك » .

ثم حذره من مسائل لها مساس عظيم بمن لم السلطان على الناس ، فكله في مسائل عامة لتنظم سيره وبسيرته فقال له : « وإياك ان يغمز ^(١) احد من حامتك وبطانة خدمك ، بضعة يجد بها مساعاً الى النطق عندك بما لا يمتزلك عيبه ، ولا تخلو من لأحدوة لائمه ، ولا تأمن سوء فيه ، ولا يرخص سوء القالة فيه ، ان نجم ظاهراً ، او أعلن بادياً ، وان يجترئوا على تلك عندك ، الا ان يرا منك إصفاً اليها ، وقبولاً لها ، وتخيصة لهم في الإفاضة بها ، ثم إياك ان يفاض عندك بشيء من الفكاهات والحكايات ، والمزاح والمضاحك ، التي يستخف بها اهل البطالة ، ويتسرع نحوها ذوو الجهالة ، ويجد فيها اهل الحسد مقالاً لعيب يذيعونه ، ولطعن في حق يجحدونه ، مع ما في ذلك من نقص الرأي ودرن العرض ، وهدم الشرف وتأثيل القفلة ، وقوة طباع سوء الكامنة في بني آدم ، كمون النار في الحجر الصلب ، فاذا قدح لاح شرره ، وتلهب وبيضه ووقد تضرره ، وأيسر في احد أقوى سطوة ، وأظهر نوقداً وأعلى كموناً ، وامرغ اليه بالعيب ، ونطرق الشين ، منها الى من كان في سنك من أغفال الرجال ، وذوي العنفوان في الحدائث الذين لم يقع عليهم سمات الامور ناطقاً عليهم لأئحها ، ظاهراً عليهم وسمها ، ولم تحضهم شهادتها ، مظهرة للعامة فضاهم ، مذيبة حسن الذكر عنهم ، ولم يبلغ بهم الصيت في الحنكة مستعماً يدفعون به عن انفسهم نواطي السن اهل البغي ، ومواد ابصار اهل الحسد » .

وعاد بعد ان حذره من الخفة في المواقب ، ومداعبة من يسايره بالتضاحك اليه ، يريد على ان يستعمل الجد في حركاته ، بحيث لا تنقل جوارحه ويجذره من السعاية ويدله على الطريقة في معاملة الناميين وعلى الترفع عن الجواسيس وصورة معاملتهم للاخذ منهم ما ينفع مصلحة الدولة فقط ونهج له السبيل السوي في معاملة اصحاب الحاجات

(١) اغمز في فلان اذا عابه واستضعفه وصغر شأنه . والحامة القرابة والأصرة .

فقال : « واعلم ان فوماً سيسرعون اليك بالسعاية وياثونك من قبيل النصيحة ، ويستميلونك باظهار الشفقة ويستدعونك بالاعزاء والشبهة وبوطنك عشوة ^(١) الحيرة ليجعلوك ذريعة لهم الى استئصال ^(٢) العامة بوضعهم منك في القبول منهم والتصديق لهم على من قرفوه بتهمة او امرعوا بك في امره الى الغلظة فلا يسان الى مشافهتك سماع بشبهة ولا معروف بتهمة ولا منسوب الى بدعة فيعرضك لابتداع ^(٣) في دينك ويحملك على رعيته ما لا حقيقة فيه ويلجأك اعراض قوم لا علم لك بدخلهم الا بما أقدم به عليهم ساعياً واطهر لك منهم منصفاً . .

« وليكن صاحب شرطك ومن أحببت ان يتولى ذلك من قوادك اليه انتهاء ذلك وهو المنصوب لا ولك والمستمع لا قوا يلهم والفاسح عن نصائحك ثم ليذكر ذلك اليك على ما يرتفع اليه منه ثمأسره بأسرك فيه وثقفه على رأيك من غير ان يظهر ذلك للعامة فان كان صريحاً نالغك حظوته وان كان خطأ أقدم به عليك جاسل او فرطاً سمى بها كاذب فنالت الساعي منها او المظالم عقوبة او بدر من واثيك اليه عقوبة ونكال لم يعصرب ذلك الخطأ بك ولم تنسب الى تقريظ وخلوت من موضع الدم فيه محضراً اليه ذهنك وصواب رأيك ولتقدم الى من تولى ذلك الامر وتعتمد عليه فيه ان لا يقدم على شيء ناظراً فيه ولا يحاول اخذ احد طارفاً له ولا يعاقب احداً منكلاً به ولا يخلي سبيل احد صالحاً عنه ^(٤) لاصحار براءته وصحة طريقتيه حتى يرفع اليك امره وينهي اليك قضيته على جهة الصدق ونفى الحق وبقين الخبر فان رأيت عليه سبباً للحبس او مجازاً لعقوبة امرته بتولي ذلك من غير ادخاله عليك ولا مشافهة لك منه فكان المتولي لذلك ولم يجر على يديك مكروه رأي ولا غلظة عقوبة وان وجدت الى العفو عنه سبباً او كان مما قُرف به خلياً كثرت انت المتولي للانعام عليه بتخليه سبيله والصالح عنه باطلاق أمره فتوليت اجر ذلك واستحققت ذخره وانطقت لسانه بشكرك وطوقت قومه حمدك واوجبت عليه حقل فقرات

(١) العشوة الظلمة . (٢) استأكل الضعفاء اخذ اموالهم . (٣) في رواية لا يتاغ

دينك . يقال اوتغته اهلكه وهذا مما يوتغ الدين والمروءة . (٤) الاصحاح الوضوح .

بين خصلتين واحزرت خطوتين ثواب الله في الآخرة ومحمود الذكر في العاجلة .
 « ثم وياك ان يصل اليك احد من جنسك وجلسائك وخاصتك وبطانتك بمسألة
 يكشفها لك او حاجة يدهك بطالبها حتى يرفعها قبل ذلك الى كاتبك الذي اهدفته
 لذلك ونصبته له فيعرضها عليك منيها لها على جهة الصدق عنها وتكون على معرفة
 من قدرها فان اردت اسعافه بها ونجاح ما سأل منها اذنت له في طلبها باسقاط له
 كنفك مقبلاً عليه بوجهك مع ظهور سرورك بما سألك فتحة رأي وبسطة ذرع
 وطيب نفس وان كرهت قضاء حاجته واحبت رده عن طلبته وثقل عليك اجابته
 اليها واسعافه بها امرت كاتبك فصغحه عنها ومنعه من مواجعتك بها فخفت عليك
 في ذلك المؤنة وحسن لك الذكر ولم ينشر عنك تجهم الرد وبتلك سوء القالة في
 المنع وحمل على كاتبك في ذلك لائمة انت منها بري الساحة .

« وكذلك فليكن رأيك وامرك فيمن طرأ عليك من الوفود ، واتاك من الرسل ، فلا
 يصلن اليك احد منهم الا بعد وصول علمه اليك ، وعلم ما قدم له عليك ، وجهة ما هو
 مكلك به ، وقدر ما هو سائلك اياه ، اذا وصل اليك فاصدرت رأيك في حوائجه ،
 وأجلت فكرك في امره ، واخترت معتزماً على ارادتك في جوابه ، وانفذت مصادور رويتك
 في مرجوع مسأله ، قبل دخوله عليك ، وعلمه بوصول حاله اليك ، فرفعت عنك مؤونة
 البدئية ، وارخيت عن نفسك خناق الروية ، واقدمت على رد جوابه بعد النظر ، واجالة
 الفكر فيه ، فان دخل اليك احد منهم فكذلك بخلاف ما انهي الى كاتبك ، وطوى عنه
 حاجته قبلك ، دفعته عنك دفعاً جميلاً ، ومنعته جوابك منعاً ودباً ، ثم امرت حاجبك
 باظهار الجفوة له ، والغلظة عليه ، ومنعه من الوصول اليك ، فان ضبطك لذلك مما يحكم
 لك تلك الاسباب ، صارفاً عنك مؤونتها ومسهلاً عليك مستصعبها) .

هذه هي الخطة التي اختطها عبد الحميد لولي عهد المسلمين ، يريد بها ان يرفع مقامه
 بين الناس ، على اختلاف مطالبهم ، وان يظهره بمظهر الكرامة بعيداً عن تجبيه قاصديه
 والتجهم لهم ، وهو ضرب من حسن الادارة والسياسة ما نخال رجال الدول الراقية اليوم
 يعملون بغير هذه الطريقة حتى لا يسقطوا من الانظار ويتركوا للراجعين فتحة من الامل ،
 ولا يقطعوا معهم قطعاً تاماً ، وان يستهدف صغار العمال للنقد وافطع من النقد ، والرئيس

من ذلك بمعزل ، على حين هو الكل في الكل ، والصغير عن رأيه صدر ، ولا رادته نفذ ولقانونه طبق . وماذا يصير هذا لو حمل الناس عليه بالظعن . وقد يفادى بالمشات من العمال لقيام الدولة وحفظ البيضة واستبقاء الكرامة والخطوة في الرفع من مكانة الرئيس الاول فان يسقطه سقوط الدولة وسقوط بعض عماله لا شأن له ولا بال . وحقيقة فان من المسائل ما يوفق لكشفه صاحب الشرطة مثلاً أكثر مما يوفق العظيم في الدولة لانه متمحض لذلك ومقام ولاية العهد يصغر في نفوس الامة اذا عمل في جزئيات الامور عملاً قد يجيده العامل الصغير ويوفق فيه ويوفر على صاحبه وقته ويرفع في العيون شخصيته .

جوّد عبد الحميد الكلام على هذا فأبان عن بعد نظر في سياسة الملك وسياسة الرعية ثم انشأ يهيج للكتوب اليه طريقاً مهيباً في سلوكه مع جلسائه وبطانته واهل مشورته واعوانه وفي احوال نفسه ، تالله لقد لقنه هناء ادياً ، وحدد له عادات ليست اليوم قواعد الحياة العامة في الممالك المتقدمة ارقى منها . وفي هذا دليل ناهض على ان العقل البشري على كثرة ارتفاعه جيلاً فجيلاً ان يهرح في دائرة تروى فيها ما كان يستحسن قبل الف سنة يستحسن اليوم . وتلك القواعد التي يتمسكون بها هي القواعد التي سنّها أجدادنا لانفسهم منذ ثلاثة عشر قرناً . قال عبد الحميد :

« اخذت تضيق رأيتك ، واهمالك أدبك ، في مسالك الرضا والغضب ، واعتوارهما إياك ، فلا يزدحمك إفراط عجب تستحقك روائحه ويستهوئك منظره ولا يهدرن منك ذلك خطأ تنزق خفة لمكروا ان حل بك او حادث ان طرا عليك وامنع اهل بطانتك وخاصة خدمك من استلخام اعراض الناس عندك بالغبية والقرب اليك بالسعاية والاعزاء من بعض بهوض او التهمة اليك بشيء من احوالهم المستثيرة عنك او التحميل لك على احد منهم بوجه النصيحة ومذهب الشفقة فان ذلك أبلغ بك سمواً الى منالة الشرف واعون لك على محمود الذكر وأطلق لعنان الفضل سيف جزالة الرأي وشرف الهمة وقوة التدبير .

« وأمالك نفسك عن الانبساط سيف الضحك والانقباض ^(١) وعن القطوب باظهار

الغضب ونخله فان ذلك ضعف عن ملك سورة الجهل وخروج من انجال اسم الفضل وليكن ضحكك تبسماً أو كشرآفي احابن ذلك واوقاته وعند كل رائع مطرب وقطوبك اطرافاً في مواضع ذلك واحواله بلا عجلة الى السطوة ولا امراع الى الطيرة ، دون ان يكتنفها روية الحلم ، وتملك عليها بادرة الجهل .

« اذا كنت في مجلس مثلك ، حيث حضور العامة مجلسك ، فاياك والرمي بنظرك الى خاص من قوادك ، اوذي أثره عندك من حشمتك ، وليكن نظرك مقسوماً في الجميع واراعتك سمعك ذا الحديث بدعة هادئة ، ووقار حسن وحضور فهم مجتمتع ، وقلة تفجير بالحدث ، ثم لا يبرح وجهك الى بعض حرسك وقوادك متوجهاً بنظر ركين ، ونفقد محض وان وجه اليك احد منهم نظره محققاً ، او رماك ببصره ملجأ ، فاخفض عنه اطرافاً جميلاً باتداع وسكون ، واياك والتسرع في الاطراق ، والخفة في تصرّف النظر ، والالاحاح على من قصد اليك في مخاطبته اياك رامقاً بنظره .

« واعلم ان نصفحك وجوه جلسائك ، وانفقدك بحانسة قوادك ، من قوة التدبير ، وشهامة القلب ، وذكاء الفطنة ، وانتباه السنة فنفقد ذلك عارفاً بمن حضره وغاب عنك ، عالماً بمواضعهم من مجلسك ، ثم أعدّ بهم عن ذلك سائلاً لم عن اشغالهم التي منعتهم من حضور مجلسك ، وعاقبتهم بالتخلف عنك .

« ان كان احد من حشمتك وأعوانك ثثق منه بغيب ضمير ، وتعرف منه لين طاعة ، وتشرف منه على صحة رأي ، وتأمنه على مشورتك ، فاياك والاقبال عليه ، في كل حادث يرد عليك ، والتوجه نحوه بنظرك عند طوارق ذلك ، ان توبه او احداً من اهل مجلسك ان بك حاجة اليه موحشة ، او ان ليس بك عنه غنى في التدبير ، او انك لا نقضي دونه رأياً ، اشراكاً منك له في روبيك ، وادخالاً منك له في مشورتك ، واضطراباً منك الى رأيه في الامر يعروك ، فان ذلك من دخائل العيوب التي ينشربها سوء القالة عن نظرائك ، فانفها عن نفسك ، خائفاً لاعتلاقها ذكرك ، واجهبها عن روبيك فاطعاً اطاع اوليائك عن مثلها عندك ، او غلوبهم عليها منك ، واعلم ان للشورة موضع الخلوة وانفراد النظر ، ولكل امر غاية تحيط بمحدوده ، وتجمع معالمه ، فابتنها

محرزاً لها ، وربما طالباً لنيلها ، وإياك والقصور عن غايتها ، أو العجز عن دركها ، أو التفريط في طلبها إن شاء الله تعالى .

« إياك والأغرام عن حديث ما أعجبك ، أو امر ما ازدهاك بكثرة السؤال ، أو القطع لحديث من أراذك بمحدثه ، حتى لنقضه عليه بالخوض في غيره ، أو المسألة عما ليس منه . فإن ذلك عند العامة منسوب إلى سوء الفهم ، وقصر الأدب ، عن تناول محاسن الأمور والمعرفة بمساوئها ، ولكن انصت لمحدثك وارع سمعك ، حتى يعلم أن قد فهمت حديثه ، وأحطت معرفة بقوله ، فإن أردت إجابته فغن معرفة بمجاسته ، وبعد علم بطلته ، والا كنت عند انقضاء كلامه كالمتعجب من حديثه بالتبسم والاغضاء ، فأجزئ عنك الجواب ، وقطع عنك السن العتب .

« إياك وإن يظهر منك تبرم بطول مجلسك ، أو تفجر من حضرك ، وعليك بالثبوت عند سورة الغضب ، وحماية الأنف ، وملا ل الصبر في الأمر تستعجل به ، والعمل تأمر بانفاذه ، فإن ذلك يخف شأن ، وخفة مردية ، وجهالة بادية ، وعليك بثبوت المنطق ووقار المجلس ، وسكون الريح ، والرفض لحشو الكلام ، والترك لفضوله ، والأغرام بالزيادات في منطقك ، والترديد للفظك ، من نحو اسمع ، وافهم عني يا هناء ، والا ترى ، أو ما يلحق به من هذه الفضول المقصورة بأهل العقل ، الشائنة لذوي الحجيا في المنطق ، المنسوبة اليهم بالعي ، المردية لهم بالذكر ، وخصال من معاصيب الملوك ، والسوقة عنها غيبة النظر ، الا من عرفها من أهل الأدب ، وقلمها حامل لها ، مضطلع بها ، صابر على ثقلها آخذ لنفسه بجوامعها فانفها عن نفسك بالتخفظ منها وإمالك عليها اعتيادك إياها معنئياً بها منها كثرة النظم والتبصق والنخع والثوباء والتمطي والجشاء وتحريك القدم ولتقيض الاصابع والعبث بالوجه واللحية أو الشارب أو المخرصة أو ذؤابة السيف أو الأيماض بالنظر أو الإشارة بالطرف إلى بعض خدمك بأمر أن أردته أو السرار في مجلسك أو الاستعجال في طعمك أو شربك وليكن طعمك متدعاً وشربك انفاصاً وجرعك مصاً وإياك والتسرع في الإيمان فيما صخر أو كبر من الأمور والمستمية بقول يا ابن الهنأة أو الغميمة لاحد من خاصتك يتسو بفهم مقارفة الفسوق بحيث محضرك أو دارك وفناؤك فإن ذلك كله مما يقع ذكره ويسوء موقع القول فيه

وتحمل عليك معانيه وبنالك شينته وينشر عليك سوء النبأ به فاعرف ذلك متوقفاً له واحذره مجانباً لسوء عاقبته .

« استكثر من فوائد الخير فانها لنشر المحمدة وتقبل العثرة واصبر على كظم الغيظ فانه يورث الراحة ويؤمن الساحة ونعمد العامة بمعرفة دخلهم وتبطن احوالهم واستشارة دفائنهم حتى تكون منها على رأي عين وبقين خبرة فتنعش عديمهم وتجبر كسيرهم وتقوّم اودهم وتعلم جاملهم وتستصلح حاسدهم فان ذلك من فعلك بهم يورثك العزة ويقدمك في الفضل ويبقي لك لسان الصدق في العاقبة ويجرز لك ثواب الآخرة ويرد عليك عواطفهم المستنفرة منك وقلوبهم المنخبة عليك .

« فس بين منازل اهل الفضل في الدين والحق والرأي والعقل والتدبير والصيت في العامة وبين منازل اهل النقص في طبقات الفضل واحواله والخلول عند مباودة النسب وانظر بصحبة ائهم لنال من مودته الجميل وتستجمع لك اقدار العامة على التفضيل وتبلغ درجة الشرف في احوالك المتصرفه بك فاعتمد عليهم من خلالهم في امرك وآثرهم بمجالستك لهم مستحقاً منهم واياك ونصيحهم بفرط اهامهم مضيعاً » .

هنا انتهى الفصل الاول من هذه الرسالة المشاهيرة في الابداع وقد لحنا فيها ما يهذب النفس ويعرفها مصادر الامور ومواردها وبقفها على احوال الناس ومعالجة مسائلهم وقد ختمه بقوله : هذه جوامع خصال قد لخصها لك امير المؤمنين مفسراً وجمع لك شواذها موافقاً واهداها اليك مرشداً فقف عند اوامرها ونواه عن زواجها وثبت في مجامعها وخذ بوثائق عراها تسلم من معاطب الردى وتل انفس الحظوظ ورغيب الشرف واعلى درجات الذكر والله يسأل لك امير المؤمنين حسن الارشاد وثنايغ المزيد وبلوغ الامل وان يجعل عاقبة ذلك بك الى غبطة يسوغك اباها وعافية يملك اكنافا ونعمة يلمحك شكرها فانه الموفق للخير والمعين على الارشاد وبه تمام الصالحات وهو وقي الحسنات وبه المملك وهو على كل شيء قدير » .

قرأنا في الجزء الاول من هذا الكتاب صورة من التربية التي يريد عبد الحميد الاكبر ان يلقنها ولي عهد المسلمين ، وبما يحاول ان ينزه عنه خلقه وعاده ، وبجالس ومواقفه ، ويلقنه من السيرة الحسنة مع رعيته وذوي الحاجات والظلال من منها ، وما يجب ان يكون

عليه في ادارته وسياسته مع عماله ونصحائه واصحاب اخباره ، على صورة يظهر معها تام الادوات ، جميل المآقي والصفات ، عظيماً يضم في برديه ضروب الوقار وحسن السميت ، وجمال العلم والادب .

اما الجزء الثاني من الكتاب فهو قانون الحرب يلخصه لقائدها ، فيعمل على نفاذه لتكتب له الغلبة على خصمه الخارج على دولته . وقد بدأ هذا القسم بالوقوف عند حدود الطاعة لله ، والعمل بمراشده ، واجتناب نواهيه ، ووصف الدواعي الى جهاد العدو الذي خرج على الجماعة فكان اضر على المسلمين من الترك والمشركين واوصاه برعاية من يمر بهم الجيش من اهل الذمة واهل الملة لئلا ينال الرعية ما ينالها على الاغلب من كل جيش سرايط ومشاعر ومهاجم ومدافع ومتراجع . فقال هذا :

فاذا افضيت نحو عدوك واعتزمت على لقائهم واخذت اعبية قتالهم فاجعل دعائمك التي تلجأ اليها وثقتك التي تأمل النجاة بها وركنك الذي ترتجي به منازل الظفر وتكثف^(١) به المآلق الحذر تقوى الله عز وجل مستشعراً لما بمراشده والاعتصام بطاعته متبعاً لامره محذراً لخطئه محذراً سنه والتوقي لمعاصيه في تعطيل حدوده وتعمدي شرائعه متوكلاً عليه فيما صمدت^(٢) له واثقاً بنصره فيما توجهت نحوه متبرئاً من الحول والقوة فيما نالك من ظفر وتلفاك من عز راغباً فيما اهاب^(٣) بك امير المؤمنين اليه من فضل الجهاد ورمى بك اليه محمود الصبر فيه عند الله من قتال عدو المسلمين اكلهم عليه واظهره عداوة لهم وافدحهم ثقلاً لعامتهم واخذة بربهم^(٤) واعلاه عليهم بغياً واظهره فيهم فسقاً وفجوراً واشده على فيهم السذي اصاره الله لهم مؤنة وكلاً والله المستعان عليهم والمستنصر على جماعتهم عليه يتوكل امير المؤمنين واياه يستنصر على عليهم واليه يفوض امره وكفى بالله ولياً وناصراً ومغيثاً وهو القوي العزيز . ثم خذ من ملك من تباك وجندك بكف معرفتهم ورد مستعلي جورهم^(٥) واحكام

(١) اكثف وتكثف لزم الكهف والكهف المغارة والوزر المنجأ . (٢) صمد للامر قصدته معتمداً عليه . (٣) اهاب بصاحبه دعاء . (٤) الرتبة حبل يوضع في العنق وجمعه ربق . (٥) في الصحيح : ورد مشتمل جهلهم واحكام ضياع عملهم .

ظلمهم ، وضم منتشر قواصيمهم ، ولم شعث أطرافهم ، وثقبيدهم عن مروا به من اهل
ذمتك ، وملتك ، بحسن السيرة ، وعفاف الطعمة ، ودعة الوفاق ، وهدي الدعة ،
وجهام المستقيم ، محكماً ذلك منهم ، منفقاً لهم فيه نفقذك اياه من نفسك .

ثم اصمد لعدوك المتسمي بالاسلام ، الخارج عن جماعة اعله ، المتجمل ولاية الدين ،
مستجلاً لدماء اوليائه ، طاعناً عليهم ، راغباً عن سنتهم ، مفارقاً لشرائعهم ، بغير
الغوائل ، وينصب لهم المكابذ ، اضرم حقدآ عليهم ، وارصد عداوة لهم ، من التترك
وأثم الشرك ، وطواغي الملل ، بدعو الى المعصية والفرقة ، والمروق من الدين الى الفتنه ،
مختزناً جهواء الى الأديان المنحلة ، والبدع المنفرقة ، خساراً وتخصيراً ، وضلالاً
وتضليلاً ، بغير هدى من الله ولا بيان ، ساء ما كسبت بداء ، وما الله بظلام للعبيد ،
وبشما سولت له نفسه الامارة بالسوء ، والله من ورائه بالرصاد ، وسيعلم الذين ظلموا
اي منقلب ينقلبون .

وقد رأينا بما نقلنا من جملة انه عاد فأراد على الاعتصام بالمولى ، وادلى اليه
بالوسائل الى استصلاح عدوه من دون اهراق دم فقال له : « اعلم ان الظفر ظفران
احدهما أعم منفعة ، وابلغ في حسن الذكر قاله ، وأحوطه سلامة ، وأتمه عافية ، وأعوده
عاقبة ، وأحسنه في الامور مورداً ، وأصح في الرواية حزماً ، وأسلمه عند العامة مصدراً ،
ما نيل ببسالة الجنود ، وحسن الحيلة ، ولطف المكيدة ، وبين النقيصة ^(١) ، واستنزال
طاعة ذوي الصدوف ^(٢) ، بغير اخطار الجيوش في وقعة جرة الحرب ، ومنازلة الفرسان
في معترك الموت ، وان ساعدتك طلوق الظفر ، ونالتك مزبة السعادة في الشرف ، وفي
مخاطرة التلغف مكروه المصائب ، وعضاض السيوف ، وألم الجراح ، وقصاص الحروب
وسجالاتها بمعاورة أبطالها ، على انك لا تدري لاي الفريقين يكون الظفر في البديهة ،
ومن المغلوب في الدولة ، ولعلك ان تكون المطلوب بالتمحيص ، فحاول ابانها في سلامة
جندك ورعينك ، واشهرهما صيناً سيف بدو تدبيرك ورأيك ، واجمعها لائفة وليك
وعدوك ، واعونها على صلاح رعينك ، واهل ملتك ، واقواهما شكيمة سيف حزمك ،

(١) النقيصة النفس . (٢) الميل والانحياز .

وابعدهما من وصم عزمك ، وعلقهما بزمم النجاة في آخرتك ، واجزلهما ثواباً عند ربك .
 وابدأ بالاعتذار^(١) الى عدوك ، والدعاء لهم الى مراجعة الطاعة وامر الجماعة ، وعري
 الألفة ، آخذاً بالحجة عليهم ، متقدماً بالانذار لهم ، باسطاً ايمانك لمن لجأ اليه منهم ،
 داعياً لهم اليه بالبين لفظك والطف حيلتك ، متعطفاً برأفك عليهم ، مترفعاً بهم في
 دعائك ، مشفقاً عليهم من غلبة الغواية لهم ، واحاطة الهلكة بهم ، متفذاً رسلك اليهم
 بعد الانذار ، تدمم كل رغبة تهبس اليها طمعهم في موافقة الحق ، وبسط كل امان
 سألوه لانفسهم ومن معهم ومن تبعهم ، موطنك نفسك فيما تبسط لهم من ذلك على الوفاء
 بمعدك ، والصبر على ما أعطيتهم من وثائق عقدك ، قابلاً توبة نازعهم عن الضلالة ،
 ومراجعة مسيئتهم الى الطاعة ، مرصداً للخناز الى فئة المسلمين وجماعتهم ، اجابة الى
 ما دعوته اليه ، وبهرته اياه من حقت وطاعتك ، بفضل المنزلة واصكرام المثوى ،
 وتشريف الجاه ، وليظهر من اثرك عليه ، واحسانك اليه ، ما يرغب في مثله الصادق
 عنك ، المصير على خلافك ومعصيتك ، ويدعو الى اعتلاق جبل النجاة ، وما هو املك
 به في الاعتصام عاجلاً وانجي له من العقاب آجلاً وأحوطه على دينه ومجته بدء
 وعاقبة فان ذلك مما يستدعي به من الله نصره عليهم . وبتعزده به في تقديمه الحجة اليهم
 معذراً او منذراً ان شاء الله .

وهنا اورد له الصورة التي يجب ان يتخذها لارسال عيونه وجواسيسه لمعرفة حال
 العدو وادراك نفسيته وما يرغب فيه « مستشيراً لذوي النصيحة الذين قد حنكتمهم
 التجربة ونهذتهم الحروب » وان الواجب ان يعظم امر عدوه لاكثر مما يلفه اخذاً
 بالحزم لئلا يكون غير مهين الجند ولا مغرطاً في الزأي ولا متلهفاً على اضاة تدبير
 ووضع له قاعدة ان يحذر جواسيسه انفسهم بما باتونه به من اخبار عدوه وان لا يعاقبهم
 اذا اتهمهم في خبر حملوه ملتصقاً لهم الاعتذار واعلمهم أو تواتوا من تدبير العدو ومكيدته .
 وقال :

« البسهم^(٢) جميعاً على الانتصاح وارجح لهم المطامع فانك لم تستعبدكم بشئ

(١) اعذر بالغ في العذراي في كونه معذوراً على ما اتاه . (٢) خالطهم .

وعدهم جزالة الثواب في غير ما استنامة منك الى امر عدوك . « واعلم شأن جواسيسك وعيونك ربما صدقوك وربما غشوك وربما كانوا لك وعليك فنصحوك لك وغشوا عدوك وغشوك ونصحوك عدوك وكثير مما يصدقونك ويصدقونه فلا يبدرب منك فرطة وعقوبة الى احد منهم ولا تعجل بسوء الظن الى من اتهمته على ذلك وابسط من آمالم فيك من غير ان تُري احداً منهم انك اخذت من قوله اخذ العامل به والمتبع له او عملت على رأيه عمل الصادر عنه او رددته عليه رد المكذب له والمتهم له المستخف بما اتاك منه فنفسد بذلك نصيبته وتستدعي غشه وتجترع دواته واحذر ان يُعرف جواسيسك في عسكرك او يشار اليهم بالاصابع وليكن منزلهم على كاتب رسائلك وامين سررك ويكون هو الموجه لهم والمدخل عليك من اردت مشابته منهم واعلم ان لعدوك في عسكرك عيوناً راصدة وجواسيس كامنة وان رأيه في مكيدتك مثل ما تكايد به وسيتمالك كاحتياالك له ويعد لك كل مدادك فيما تزاوله منه فاحذر ان يشر رجل من جواسيسك في عسكرك فيبلغ ذلك عدوك و يعرف موضعه فيعد له المارصد ويحناك له بالمكاند فان ظفر به فأظهر عقوبته كسر ذلك ثقات عيونك وخذلهم عن نطلب الاخبار من معادنها واستقصائها من عيونها واستعذاب احداثها من ينابيعها حتى بصيروا الى اخذها مما عرض من غير الثقة ولا المعابنة لقطاً لها بالاخبار الكاذبة والأحاديث المرجفة واحذر ان يعرف بعض عيونك بعضاً فانك لا تأمن تواطنهم عليك ومما لأنهم عدوك واجتماعهم على غشك وتطابقهم على كذبك واصفاقهم^(١) على خيانتك وان يورط بعضهم بعضاً عند عدوك فاحكم امرهم فانهم رأس مكيدتك وقوام تدبيرك وعليهم مدار حركك وهو اول ظفرك . »

وذكر له بعد هذا صفة من يوليه شرطته ، وان يكون اوثق قواده عنده وآمنهم نصيحة ، واقدمهم بصيرة في طاعته ، واصدقهم عفافاً ، وان يبسط من اماله مظهرأ عنه الرضا ، حامداً منه الابتلاء ، وبين له مهمته من الجيش وسلطته على الناس . وقال له ان يولي القضاء في عسكره رجلاً من ذوي الخير في القناعة والعفاف والنزاهة والفهم

والوقار والعصمة والورع من حنكته السن ، وابدته التجربة ، ويكون من لا يذاهن في القضاء و يعدل ، وان يجري عليه ما يكفيه ويسمه ويصلحه ، لينفرغ لما حمله ، ويعان على ما ولي ، وأشار له ان ينتخب لطلائعه ذري نجدة وبأس وخبرة ممن صلوا بالحروب ، وشربوا مرار كؤوسها ، وان ينتقمهم على عينه ، ويعرض كراهم^(١) بنفسه ، وبين له ما يصلح من الخيل والسلاح ووصف ذلك ابداع وصف . وحذره ان بكل مباشرة عرضهم وانقاجهم الى احد من اعوانه وكتابه ، لئلا يضيع مواضع الحزم ويقف دون عزم الروية ، لانهم حصون المسلمين وعيونهم وهم اول مكيدته ، وعروة امره ، وزمام حربه ، وان ينتخب للولاية عليهم رجلاً بعيد الصوت ، مشهور الاسم ، ظاهر الفضل ، له سيف العدو وقعات وصولات ، وان يجري عليهم وعليه ارزاقاً تسعهم وتقدم من اطاعهم سوى ارزاقهم في العامة وبعد هذا قال له ان يولي دراجة عسكره واخراج امله الى مصافهم ومراكبهم رجلاً من اهل بيوتات الشرف محمود الخبرة معروفاً بالنجدة ذا سن وتجربة وان يضم اليه عدة نفر من ثقات جنده وذوي اسنانهم يكونون شرطة معه ثم ينقدم اليه في اخراج المصاف واقامة الاحراس واذكاء العيون وذكر له عمل هذا الرجل في الاخذ بالنافع لقيام امر الجيش ورقابته من العدو .

وذكر له ان يفوض الى امرائه اجناده وقواد خيله امور اصحابهم رياضة منه لم على السمع والطاعة لامرائهم وحذره ان يمثل احد من قواده عليه بما يحول بينه وبين تأديب جنده لان ذلك مفسدة للجنـد وحذره استخفاف الجنـد بقوادهم لان ذلك يؤدي الى استخفافهم بامرهم وان يوعز الى قواده ان لا يقدموا على عقوبة احد الا عقوبة تأديب اما عقوبة القتل او اقامة حد في قطع او افراط في ضرب فلا يلي ذلك الا هو او صاحب شرطته بامرهم وعن رأيه واذنه .

وبعد ذلك بسط له لقاء العدو اذا شام طلائعه كيف يكتب خيوله وبعي جنده ويسير سيفه مقدمة وميمنة وميسرة وسافة شاهرين الاسلحة ناشرين البنود والاعلام عارفين بمواضعهم سيفه مسيرهم ومعسكرهم معروفاً كل قائد اصحابه موافقهم من الميمنة

(١) كراهم خيلهم .

والميسرة والقلب والبسافة والطليلة ، ليكون كأنه عسكر واحد في اجتماعه على العدو ، فان ضلت دابة من موضعها عرف اهل العسكر من اي المراكز هي ومن صاحبها ، وفي اي المحل حلوله منها فردت اليه . واراده على ان يجعل على ساقته أوثق اهل عسكره صرامة ونفاذاً ، ورضاً في العامة ، وانصافاً من نفسه للرعية ، وان يجعل خلف ساقته رجلاً من وجوه قواده جليداً ماضياً عفيماً صارماً شهم الرأي شديد الحذر غير مداهن في عقوبة ، في خمسين فارساً من خيله ، يحشر اليه جنده ويلحق به من يتخلف عنه ، وامره ان يعد العقوبة الموجعة ويستصفي الأموال ويهدم عقار كل من آوى احداً من الجند او صتر موضعه او أخفى محله ثم قال :

ليكن رحيلك إباناً واحداً ، ووقتاً معلوماً ، تخف المؤنة بذلك على جندك ، ويعطوا أوان رحيلهم فيقدموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم ، وأعلاف دوابهم ، وتسكن قلوبهم الى الوقت الذي وقفوا عليه ، ويعلمون ذوو الرأي الى إبان الرحيل ، ومتى يكون رحيلك مخلفاً ، تعظم المؤنة عليك وعلى جندك ، ولا يزال ذوو السفه والنزق يتربحون بالارجاف ، وينزلون بالتوهم ، حتى لا ينفع ذو رأي بنوم ولا طمأنينة .

إياك ان تظهر استقلالاً ، او لنادي برحيل من منزل تكون فيه ، حتى تأمر صاحب تعييتك بالوقوف باصحابه على معسكرك آخذاً بجني فوخته بأسلحتهم عدة لاسر ان حضر ، او مفاجأة من طليعة العدو ان رأت منك نهزة ، او لحث عندكم ضرة ، ثم صر الناس بالرحيل ، وخيلك واقفة ، وأهبيتك معدة ، وجنتك واقية ، حتى اذا استقلتم من معسكركم ، وتوجهتم من منزلكم ، سرتم على تعييتكم بسكوت ريج ، وهدوء حملة ، وحسن دعة ، فاذا انتهيت الى منزل اردت نزوله ، او هممت بالمعسكر به ، فاياك ونزوله الا بعد العلم باهله ، والمعرفة بمرافقه ، وصر صاحب طليعتك ان يعرف لك أحواله ، ويستشير لك علم دفينه ، ويستبطن علم اموره ، ثم ينهيها اليك على ما صارت اليه ، لتعلم كيف احتماله لمعسكرك ، وكيف مأواه وأعلافه وموضع معسكرك منه ، وهل لك ان أردت مقاماً به ، او مطاولة عدوك ، او مكايده فيه ، قوة فحملك ومدد يأتيه ، فانك ان لم تفعل ذلك ، لم تأمن من ان تهجم على منزل يهجمك ويضجك عنه ضيق مكانه ، وقلة مياهه ، وانقطاع مواده ان أردت بعدوك مكيدة ، او احتجت من امورهم الى

مطاوله ، فان ارتحلت منه كنت غرضاً لعدوك ، ولم تجد الى المحاربة والاختطار سبيلاً ،
وان ائتت به ائتت على مشقة وحصر ، وفي ازل^(١) وضيق ، فاعرف ذلك ولتقدم فيه ، فان
أردت نزولاً امرت صاحب الخيل التي وكلت بالناس فوفقت خيله منجبة من معسكرك ،
عدة لامران غالك ، ومفرغاً لبديهة انت راعتك ، فقد أمنت بحمد الله وقوته بخاء
عدوك ، وعرفت موقعها من حرزك ، حتى يأخذ الناس منازلهم ، وتوضع الاثقال
مواضعها ، ويأتيك خبر طلائعك ، وتخرج دبابتك من معسكرك دراجة ودباباً محيطين
بمعسكرك ، وعدة ان احتجت اليها ، ولتكن دبابات جندك اهل جلد وقوة ، فائداً او اثنين
او ثلاثة باصحابهم ، في كل ليلة ويوم نوياً بينهم ، فاذا غربت الشمس ووجب^(٢) نورها
أخرج اليهم صاحب تعبيتك أبداهم ، عسكاً بالليل في اقرب من مواضع دبابي النهار
يتماور ذلك فوادك جميعاً بلا محابة لاحد فيه ولا إدهان .

وعلى هذا النحو وضع لولي عهد المسلمين مخطط الحركات الحربية ثم قال له ان يكون
منزله في خندق او حصن ليأمن فيه بهات عدوه ، وان يقطع اكل قائد ذرعاً معلوماً من
الارض بقدر اصحابه ، فيحفروه عليهم خندقاً بطيفونه بعد ذلك بخنادق الحسك اي
الأسلاك الشائكة . واذا طرقهم طارق او فاجأهم عدو ان لا يتكلم احد رافعاً صوته
بالتكبير ، وليشرعوا رماحهم ناشبين بها في وجوههم ، ويزشقونهم بالنبل مكشكين
باترستهم ، لازمين لمرأكرهم ، وان يكبروا ثلاث تكبيرات متواليات وسائر الجند هادون ،
ليعرف مواضع عدوه من معسكره ، وان لا يشهروا سيفاً يتجالدون به ، بل يكون قتالهم
بالرمح والفتاب « قد ألبدوا بالأتوسة ، واستجنوا بالبهض ، والقوا عليهم سواغ الدروع
وجباب الحشو » وأراد ان نل ان لا يحمذ نازرواقه ليسكن نافر قلوب عسكره ، وان
عدوه اذا نكل عن الاصابة في جنده فعليه ان يتبعه جريدة خيل عليها الثقات من فرسانه .
ونقدم اليه فوصف الحالة التي يجب على هؤلاء الثقات ان يكونوا عليها ، وهم بطاردون
اعداءهم ، والصفات التي يجب على فرسانه ان يكونوا عليها ليغوا غنائمهم ، ووصف له
صورة خيلهم وعددهم وسلاحهم وكيف يولي على كل مائة رجل منهم رجلاً من اهل

(١) الازل ضيق في العيش . (٢) وجبت الشمس غابت .

خاصته وثقافته ونصحائه « له صبت في الرياسة وقدم في السابقة ، واولية في المتابعة ، ويتعهدهم ودواهم وسلاحهم ليكونوا كرجل واحد في التشمير ومسرعة الاجابة عند الطلب » .
وقال له : ان يوكل بخزائنه ودواوينه رجلاً ناصحاً أميناً ويجعل معه خيلاً يكون مسيرها ومنزلها ومرحلها مع خزائنه وحولها ، ويكون عامة الجند والجيش منجيين عنها لثلاً تحدث فزعة فينتهب الجند انفسهم الخزانة .

وبعد ان نحا هذا المنحى ختم هذه الرسالة العذراء بان يعمد الى الحيل اولاً لا الى القتال وان يدس الى عدوه ، وبكاتب رؤسائهم وقادتهم ، وبعدهم وبنينهم ، ويقطع أعناقهم بالمطامع . وقال له : ولا عليك ان تطرح الى بعضهم كتباً كأنها جواب كتب لهم اليك ، وتكتب على السنتهم كتباً اليك تدفعها اليهم ، وتحمل بها صاحبهم طيحهم ، وتزلم عنده بمنزلة التهمة ومحل الظنة ، فلعل مكيدتك - في ذلك ان يكون فيها افتراق كلمتهم . وأتم الرسالة بما يجب عليه وعلى جيشه من ذكر الله عند المصادلة وان لا يظهر الجند تكبيراً الا في الكرات والجملات ، اما وهم وقوف فان ذلك من الفشل والجبن ، وان يكون في معسكره المكبرون في الليل والنهار قبل المواقعة يحضون الناس على القتال ، ويصفون لهم منازل الشهداء وثوابهم ، ويذكرونهم الجنة ودرجاتها ، ونعيم اهلها وسكانها . وكتب هذا الكتاب سنة تسع وعشرين ومائة قبل زوال ملك بني أمية من الشرق بثلاث سنين .

عرفنا كما رأيت من هذه الرسالة اموراً كثيرة من شؤون تلك الايام ، ونطع حروبها ، والاخلاق الغالبة على اهلها ، ما لا نعرف بمضه بالرجوع الى الكتب المطولة والاحاديث المنشرة ، ودل بها عبد الحميد الاكبر انه رجل الدولة الاموية ممن قد ينبغ مثلهم اواخر الدول فيكونون لها مسراجاً وهاجاً ، ونطفاً شعلتهم بانطفاء شعلتها .

وعرفنا بهذا القليل من الصفحات التي ابقت عليها العصور من كلام امام المفكرين نفسيته وعقله بما لا تنهض بغيره التراجم المطولة التي بكتبها اصحابها فيمن لم يعرفهم ولم يعاشروهم ، فيترجمون لهم كما يترجمون لغيرهم ، وبعض التراجم اذا ازلت منها جملاً معينة تليق ان تلبس على جسم اكثر الناس وروحهم . وترجمة المراء من كلامه افعل اثرأ واصدق قبيلاً .

رسالته الى الكتاب ومن اشهر ما خلفته العصور من رسائل عبد الحميد بن يحيى
رسالته الى الكتاب نقلها عن اقدم مصدر لها وهو كتاب الجهمياري وقد نقلها ابن
خلدون في مقدمته الا انه لم تصل اليه برمتها . قال صاحب تاريخ الوزراء وجدت بخط
ميمون بن هرون لعبد الحميد كتاباً الى الكتاب اطلال فيه الا انه اجاد فلم استحسن اسقاط
بعضه ، وكتبته جميعه على طوله لان الكاتب لا يستغني عن مثله وهو :

اما بعد حفظكم الله يا اهل هذه الصناعة وحاطكم ووفقكم وارشدكم ، فان الله عز وجل
جمل الناس من بعد الانبياء والمرسلين صلوات الله عليهم اجمعين ومن بعد الملوك
المكرمين سوقاً ، وصرتهم في صنوف الصناعات التي سبب منها معاشهم ، فجعلكم معشر
الكتاب في اشرفها صناعة : اهل الادب والمروءة والحلم والروية ، وذوي الاخطار
والعم ، وسعة الذرع في الافصال والصلة ، بكم ينظم الملك ، وتنظيم الملوك امورهم
وبتدبيركم وسياستكم يصلح الله سلطانهم ، ويجمع فيهم وتعمر بلادهم ، يحتاج اليكم
الملك في عظيم ملكه ، والوالي في القدر السني والدلي من ولايته ، لا يستغني عنكم منهم احد ،
ولا يوجد كاف الا منكم ، فوقعكم منهم موقع اسماعهم التي بها يسمعون ، وابصارهم التي
بها يبصرون ، والسنيهم التي بها ينطقون ، وابديهم التي بها يبطشون ، انتم اذا آت
الامور الى موثلها ، وصارت الى محاصلها ، ثقافتهم دون اهلهم واولادهم وقربانهم
ونصحائهم ، فامتكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ، ولا نزع مهربال النعمة عليكم .

وليس احد من اهل الصناعات كلها احوج الى استخراج الخبير المحموده وخصال
الفضل المذكورة المعدودة . ايها الكتاب ان كنتم على ما سبق به الكتاب من صنعتكم
فان الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات اموره ، الى ان
يكون حليماً في موضع الحلم ، فقيهاً في موضع الحكم ، مقدماً في موضع الاقدام ،
ومحبباً في موضع الاحجام ، ليناً في موضع اللين ، شديدآ في موضع الشدة ، ووثراً
للغفاف والعدل والانصاف ، كنوماً للأسرار ، وفيآ عند الشدائد ، عالمآ بما يأتي وبذر
ويضع الامور في مواضعها ، قد نظر في كل صنف من صنوف العلم فأحكمه فان لم
يحكمه شداً منه شدواً بكتني به ، بكاد يعرف بفرزة عقله وحسن ادبه وفضل تجربته

ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدر قبل صدره ، فيعد لكل امر عذته ، ويعي لكل امر أهنته ، فتافسوا معشر الكتاب في صنوف العلم والادب ونفقوا في الدين وأبدؤا بعلم كتاب الله عز وجل ، والفرائض ثم العربية فانها ثقاف السفنكم ، وأجيدوا الخط فانه حلية كتبكم ، وارووا الاشعار واعرفوا غريبها ومعانيها ، وايام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ، فان ذلك معين لكم على ما تسمون به بكمكم ، ولا يضعفن نظركم في الحساب ، فانه قوام كتاب الخراج منكم ، وارغبوا بانفسكم عن المطامع سانيها ودنيها ، ومساوي الامور ومحافرها ، فانها مذلة للرقاب ، مفسدة للكتاب ، ونزهوا صناعتكم ، واربؤوا بانفسكم عن السماية والتميمة ، وما فيه اهل الجهالة والدناءة ، واياكم والكبر والعظمة ، فانها عداوة مجتلبة بغير احنة ، وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم ، وتواصلوا عليها فانها شيم اهل الفضل والنبل من سلفكم .

وان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه ، وواسوه حتى ترجع اليه حاله ، وان اقعده الكبير احدكم عن مكسبه ، ولقاء اخوانه فوزروه وعظموه وشاوروه ، واستظهروا بفضل رأيه وتجربته ، وقديم معرفته ، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته اليه ، احبب واحوط منه على اخيه وولده فان عرضت في العمل محمدة فليضفها الى صاحبه ، وان عرضت مذمة فليحملها من دونه ، وليحذر السقطة والزلة ، والملال عند تغير الحال ، فان العيب اليكم معشر الكتاب اسرع منه الى المرأة ، وهو اكمل اشد منه لها ، فقد علمتم ان الرجل منكم قد يصف الرجل اذا صحبه في بدء امره من وفائه وشكره ، واحتماله وصبره وانصيته ، وكتمان سره وعفافه وتديبره ، بما هو حري ان يحقه بفعاله في غير حين الحاجة الى ذلك منه ، فابذلوا وفقكم الله ذلك من انفسكم ، في حال الرخاء والشدة ، والحرمان والمواساة ، والاحسان والاساءة ، والغضب والرضا ، والسراء والضراء ، فتمت السمة هذه لمن وسم بها من اهل هذه الصناعة الشريفة ، فاذا ولي الرجل منكم وصيّر اليه من امور خلق الله وعباده امر ، فليراقب الله تعالى ذكره ، وليؤثر طاعته فيه ، وليكن على الضعيف رفيقاً والمظلوم منصفاً ، فان الخلق عباد الله ، وأحبههم اليه أرفقهم بعباده ، ثم ليكن بالحق حاكماً ، وللأشراف مكرماً ومدارياً ، وللثني وفراً ، وللبلاد عامراً ، وللارعية مثألفاً ، وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً ليناً ، وسيفاً

استجلاب خراجها واستقصاء حقوقه رفيقاً .

وإذا صحب أحدكم الرجل فليستشف خلائقه كما يستشف الثوب ليشتريه لنفسه فإذا صرف حسننها وتبيحها أعانه على ما يوافق من الحسن واحتال لصرفه عما يهواه من القبيح بالطرف حيلة واحسن مداراة ورفق فقد عرفت ان سائس البهيمة اذا كانت حاذقاً بسياستها التمس معرفة اخلاقها فان كانت رموحاً اتقاها من رجلها وان كانت جموحاً لم يهجمها اذا ركبها واذا كانت شמושاً توقاها من ناحية يدها وان خاف منها عضاضاً توقاها من ناحية رأسها وان كانت حروناً لم يلاحها وتلتبع هواها في طريقها وان استمرت عطفها فيسلس لها قيادها . ومن هذا الوصف من سائس البهيمة ورفق سياسته دليل وأدب لمن ساس الناس وعاملهم وخدمهم وصحبهم .

والكاتب بفضل رأيه وشرف صناعته ، ولطيف حيلته ومعاملته ان يجاوره وينظره ، ويفهم عنه ويخاف سطوته ، اذ الى بالرفق بصاحبه ومداراته ونقويم أوده من سائس البهيمة التي لا تحير جواباً ، ولا تعرف خطأ ولا صواباً ، الا بقدر ما يصيرها اليه سائسها ، وصاحبها الراكب لها فأدقوا يرحمكم الله النظر واعملوا فيه الروية والفكر ، تأمنوا ممن صحبتهم باذن الله النبوة ، والاستئصال والجفرة ، وبصيروا .كم الى المواقفة وتصيروا منهم الى المواساة والشفقة ان شاء الله .

ولا يجوز ان الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه وغير ذلك من فنون امره — قدر صناعته فانكم مما فضلكم الله به من شرف صناعتكم خدم لا يحتفلون في خدمتكم على التقصير وخزان وحفظة لا يحتمل منكم التضييع والتبذير واسعيتوا على عفافكم بالقصد في كل ما عدت عليكم فنعم العون عونكم على صيانة دينكم وحفظ امانتكم وصلاح معاشكم واحذروا متالف السرف وسوء عاقبة السرف فانهما يعقبان الفقر ويدلان الرقاب ويفضحان اهلها ولا سيما الكتاب واللامور اشباه وبعضها دليل على بعض . فاستدلوا في مؤلف اعمالكم بما سبقت اليه تجربتكم ثم اسلكوا من مسالك التدبير اوضحها بحجة وارجحها حجة وحمدتها عاقبة واعلموا ان للتدبير آفة وضداً^(١) واقية لا يجتمعان في احد ابدأ وهو الوصف الشاغل لصاحبه على

(١) كذا وفي رواية « واعلموا ان للتدبير آفة مثله وهو الوصف الشاغل الخ .

انفاذ عمله ورويته فليقصد الرجل منكم في مجلس تدبيره قصد الكافي في منطقته
وليقتصد في كلامه وليوجز في ابتدائه وليأخذ بجماع حججه مجتمعة فان ذلك مصلحة
لعقله ومحجة لذهنه ومدفعة للشاغل من اكثاره وان لم يكن الاكثر عادة ثم وضع
موضعه في ابتداء كتاب او جواب عند الحاجة فلا بأس ولا يدعون الرجل منكم صنع
الله تعالى ذكره له في امره وتأنيده اياه بتوقيفه الى العجب المضر بدينه وعقله وأدبه
فانه ان ظن منكم ظان او قال قائل ان ذلك الصنع لفضل حيلته واصالة رأيه وحسن
تدبيره كان متعرضاً لان يكله الله الى نفسه فيصير منها الى غير كاف ولا يقل احد
منكم انه آدب واعقل واحمل لعب التدبير والعمل من اخيه في صناعته فان اعقل
الرجلين عند ذي الالباب القائل ان صاحبه اعقل منه واحمقها الذي يرى انه اعقل
من صاحبه لعجب هذا بنفسه ونبد ذاك العجب وراء ظهره اذ كان الآفة العظمى
من آفات عقله ولكن قد يلزم الرجل ان يعرف فضل نعمة الله عليه من غير عجب برأيه
ولا تزكية لنفسه ولا تكابر على اخيه وكفئه ويشكر الله ويحمده بالتواضع اعظمته .
وانا اقول في آخر كتابي هذا ما سبق به المثل « من يلزم الصحة يلزمه العمل » وهو
جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل فلذلك جعلته
آخره وختمته به تولانا الله واياكم معشر الكتاب بما يتولى به من سبق علمه في سعادته
وارشاده فان ذلك الية وبهذة والسلام عليكم ورحمة الله .

وهذا الكتاب ايضا عرفنا منازع عبد الحميد وادبه . وانه يريد ان يجعل من
الكتابة صناعة شريفة نفيد الناس ونفيد الآخذين انفسهم بادبها وان الكتابة تحتاج
الى ادوات كثيرة ذكرها مفصلة ولا بد بعد الاضطلاع باعباء ما يلزم لها من العلوم ان
يلم الكاتب بكل موضوع ولو الماما خفيفاً ومن احلى ما في رسالته ان يسترشد الصغار
منهم بالكبار الذين سبقوهم في هذه الصناعة ويتعهدوهم ويعملوا بمشورتهم فلا عجب بعد
هذا ان كانت لعبد الحميد من كتابته مدرسة خاصة مازال الناس يأخذون منها في العصور
التي تلتها وقلما حادوا عنها بحال لانها معقولة مقبولة لنعم صاحبها في كل زمن وقد صدرت
عن عقل عظيم جداً تجذته التجارب وأبدته العلم الغزير والادب النثير .

نعم ألبس عبد الحميد في الثلث الاول من القرن الثاني هذا الانشاء العربي حلة جديدة

فيها المتانة وفيها الرشاقة واكثر ما بدا في تضاعفها الاطالة في غير ما املال من سجع
وترصيع انشاء يسير مع الطبع ومع الطباع التي توأم أهل الحضارة ممن يفصلون
ويتوسعون ويعيدون ويبدون ومقاصدهم تحوم حول التأثير في اذهان السامعين والقارئین .
وبلوغ الغاية من تأليف الدول والنظام الجماعة ولم تكن هذه الطريقة في الكتابة فيما بلغنا
مألوفة في عامة دور الأمويين لان هؤلاء عرب الخجاج وكتابتهم على شاكلتهم يحاولون
بالايجاز في مكتوباتهم ان يتركوا للقاري شيئاً من المعاني يفسرها بما يريد ويمتعه به بشيء
من الحرية ينطلق فيها على ما يرى فيه المصلحة فيكون لديه المختصرات والافاضيل من
المطلوبات نفهم بذاتها . ومن المحقق ان عبد الحميد اقتبس هذه الطريقة من الامم المجاورة
لا سيما الفرس ممن لم تكن حضارتهم حضارة ابتدائية كالعرب بل فيها المطول المسهب
والمثعب المتعب ولقد احتاج العرب بعد توسعهم في الملك الى تفرير المسائل على جلستها
لا يتورها بالبس ولا إشكال ومن مواجب الحضارة الاسهاب ومن دواعي البداوة الاقتصار .
فعبد الحميد اذا تشبع بروح لدولة وروح حضارتها التي بلغت في ايامه أعلى قممها ورسم
ببراعته صورة ما احاط به وافضاء الحال ولو حاول بعد ان بلغت الامة ما بلغته من درجات
النقد في كل شأن من شؤون المجتمع ان يعود بالكتابة الى ايجازها القديم لما أفاد
جديداً ، ولما رجع ذاك الصدى في سلطان دولته ، ولما وصف محيطه حق وصفه . ومن
الصعب ان يتمدى المرء حدود البيئة ، ولا عليه فيما اتاه مادامت حال الدولة تتطلب
القاء الخطا الى الامام ، وان تجدد اوضاعها على ما تقتضيه المصلحة ، وطبيعة الملك والحضارة ،
على ان لا يهدم في عمله اصلاً من الاصول القديمة . وفي هذا كان جماع المكنة التي بلغها
عبد الحميد بانشائه فهو مخترع طريقة ، وكاتب وصاف على الحقيقة ، استجمع كل شروط
البلاغة فعد امير المنشئين غير مدافع ، واستطاب الناس الى يومنا هذا أسلوبه المعجب
المطرب ، واين من يشاكله فيه ، او تسمو فريحته الى مستوى ذاك النابغة في فنون
الانشاء ، الداهية في حسن التصرف على ما يشاء .

محمد كرد علي



أبو عمر الزاهد^(١)

غلام ثعلب الحفظة اللغوي المحدث
« وكتاب المداخل له »

نبغ للمسلمين في منتصف القرن الثالث من الهجرة علان من كبار الاعلام ورحلتان
عليها الممول عند الاختلاف والمفزع في الخلاف . فأخذ طلاب العلوم يهرعون اليها
من كل صقع وينسبون من كل حذب . وهما حاملتا لواء العربية ببغداد ومنندي أهلها .
وعليها انتهت رئاسة العربية واليهما كان مرجع علماء المصريين (البصرة والكوفة) في
تحقيق المسائل ونقيد الروايات كما قال :

أي طالب العلم لا يجهد
تجد عند هذين علم الوري
وعند المبرّد أو ثعلب
فلا تك كالجلجلاج

نخرج لهم من جهابذة التلامذة من ملأ والآفاق وبثوا فيها من كل علم مارق
وراق . وكان القرن الثالث للإسلام هو الذهبي من جهة استقرار الخلافة وتوطد الامامة
في قراريتها في انحاء المعمور الشاسعة ثم اخذ ظلمها الوارف ينقلص عن الاطراف وينضوي
الى ما استطف من مراكز الخلافة غير ان يزور العلم التي ثروما واشجار الحضارة العربية
التي غرسوها لم تكن لتندوي او تذبل بعد ما سقوها من ينابيع عنايتهم الجارية وفيوضها
الهامة المتوالية فنضرت وزهرت بما لم يخطر في الحساب والظنون واثمرت واينعت
على هنات هناك وشجون .

فمن تخرج على المبرّد الزجاج وابن السراج وابو علي الطوماري وابو بكر ابن ابي
الأزهر وابن درستويه وأبو علي الصفار وأبو جعفر الصفار .

ومن اخذ عن ثعلب ابن الانباري وابو عمر الزاهد غلامه وابو موسى الحامض كبير
أصحابه وابراهيم الحربي وأبو عبد الله اليزيدي وابن مقسم .

ومن أخذ عنها أو خلط بين المذهبين ابو حسن الاخفش ثالث الأخفش واصغرم

(١) المجموع : راجع الجزء الثامن من هذا المجلد ص ٤٤٩ .

ونفطويه وابن كيسان والصولي وابن المعتز .

ثم برع هؤلاء من التلامذة من فافوا عليهم وتصدروا للرئاسة وأنافوا وبرزوا وطار لهم دوي في اكناف البسيطة كأبي علي الفارسي والسيرافي والزجاجي وأبي الطيب اللغوي وابن خالويه والروماني وابن فارس والازهرى الى غيرهم .

ولكن مما لا يستهان به في مثل هذا المقام ان ابا عمر الزاهد مع شهرته لم يطبع الى الآن شيء من تأليفه الخطيرة التي هي مادة اللغة وينبوعها الصافي ولا عُرف بالبقاء منها غير فئات الفصح عند بعض متغلي العلم بدهلي وغير العشرات بخزانة برلين وغير هذا الكتاب الذي نحن بصدد مع ان ثلاثة منها غير هذه كانت توجد الى آخر المائة (١١) كما نراه في الثبت . وهذه النسخة فريدة فيما بلغه علي وأحاطه نظري توجد بخزانة رامپور (الهند) في ١٣ صفحة وهي حديثة غير مضبوطة^(١) ولا عارية عن الأغلط بخط وسط ولم يثبت عليها تاريخ نسخها غير اني أقدر نظراً الى نوع خطها وورقها ان تكون كتبت في آخر المائة الثانية عشرة للهجرة نسخها في جلستي الصباح والمساء في بعض ايام شوال سنة ١٣٤٦ هـ (٣ ابريل سنة ١٩٢٨ م) .

وثبت على النسخة ترجمته (بكتاب المداخلات) والمجمع عليه (المداخل) انظر فهرستي النديم وابن خير والوفيات وكشف الظنون وابا العلاء^(٢) وما اليه عن الغفران ومعجم الأدباء وغيرها . قال خليفة انه مختصر في اللغة وعليه (زيادات) وهو احدو ثلاثون باباً سبعة منها زيادات عليه . قال العاجز الموجود في نسختنا وحاشاها من الخرم الحادث ثلاثون فقط . فلعل خليفة غلبت في الحساب او يكون اصل نسخة رامپور مقتضياً .

وهذه الزيادات لم يذكرها احد من ترجم لأبي عمر . نعم ذكروا له عليه كتاباً آخر رسمه عند ابن النديم (حل المداخل) وعند باقوت (حل المداخل) وفي الوفيات (علل المداخل) . وليس في نسختنا علامة تدل على إفراز الزيادات عن الاصل .

ولأبي الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي صاحب مراتب النحويين كتاب في مثل هذا المعنى سماه شجر الدر ذكر ابو العلاء^(٣) انه سلك فيه مسلك ابي عمر في المداخل

(١) والذي يظهر لي ان اصلها كان مصححاً . (٢) ص ٦٤ .

تري فصلاً منه بآخر هذه الطبعة . وهذا النوع يسمى الشجر وهو يسهل على الابداء
حفظ اللغة وبنائظه من علم الحديث المسلسل وقد سمي ابو الطاهر محمد بن يوسف
القيمي^(١) صاحب المقامات^(٢) اللزومية المتوفى سنة ٥٣٨ هـ كتابه المسلسل في اللغة
الذي يوجد منه نسخة عتيقة مكتوبة سنة ٥٦٥ هـ في الخزانة المصرية قال ابن خير وهو
في معنى المداخل .

وهذا اسناد الكتاب^(٣) لابن خير الاشبيلي الى المؤلف قال : حدثني به الشيخ
ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن ميمر المزجمي رحمه الله قال حدثني به الوزيري ابو بكر
محمد بن هشام بن محمد المصفي رحمه الله قال حدثني به ابي رحمه الله وابو الحسن علي بن
محمد بن ابي الحسين وابو بكر محمد بن خشخاش وابو الحسن الزهري المفسر قراءة منه عليهم
قالوا كلهم حدثنا به ابو سليمان^(٤) عبد السلام بن السمع قراءة عليه قال قرأته باليمن
على ابي عبد الله الحسين بن احمد بن بريهة العباسي قال قرأته على ابي عمر المطرز رحمه
الله . قال ابو بكر المصفي قال لي ابي رحمه الله كانت قراءة لي على ابي سليمان بالمدينة
الزهراء سنة ٣٧٩ هـ قال ابو بكر المصفي وابو سليمان هذا من اهل مورور هواري النسب
رحل الى المشرق وأقام بها مدة طويلة وحج ولقي جماعة من اهل العلم وفقه وكان حفظه
لمذهب الشافعي أغلب عليه فعُرف وأحكم قراءة القرآن على القراء وروى كتباً كثيرة
فلما انصرف من المشرق أنزله الحكم بالزهراء وسمع عليه فصار زهراوياً مستوطناً بها الى
ان مات وفيها قرأ الناس عليه واخذوا عنه وكان يروي عن المطرز نفسه كتبه ما خلا
المدخل فانه لم يدرك قراءة عليه فقرأ باليمن عند انصرافه عن العراق على ابن بريهة
من أئمة جامع بغداد . قال الوزيري ابو بكر المصفي كنت أقرأ المداخل على ابن خشخاش

(١) ترجم له ابن بشكوال رقم ١١٧٥ وابن الأبار في معجم اصحاب الصدي رقم ١٢٤
وصاحب البغية ص ١٢٠ . (٢) بقي منها نسخة بدير الاسكور بال ونسختان بجامع اللاهلي
بالقسطنطينية وصفتا بالزهراء ص ٤٠٢ سنة ١٣٤٥ هـ وذكر المقامات في نكلة ابن
الأبار رقم ١٧٢٢ وتحت ٣١٢ من طبعة الجزائر وفي المعجم المذكور تحت ٢٦٦ والمعاهد
٢ : ١٠٦ . (٣) ص ٣٥٨ . (٤) ترجم له ابن الفرضي رقم ٨٥٥ قال توفي سنة ٣٨٧ هـ .

وصاعده اللغوي حاضر اذ كان جارنا ببیت بلد (كذا) وكنت أنخط في ذلك الوقت عن القراءة عليه لصغر سني فكان جدي رحمه الله يشير علي ابن خثفاش بان تكون قراءتي عليه وقت حضور صاعد فربما يرد علي فيما أقرأه ويسبقني الي قراءة بعضه وكان صاعد قرأ المداخل بمصر علي الوز يراي الفضل^(١) جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن موسى ابن الفرات المعروف (بان) حنزابة عن ابي عمر محمد بن عبد الواحد المطرز قراءة عليه ببغداد وكان ابن حنزابة لا يفارق صاعداً يسامره .

وحدثني به ايضاً اجازة الشيخ الوز يراي ابو الوليد احمد بن عبد الله بن طريف رحمه الله قال اخبرني به ٠٠٠٠ ابو مروان عبد الملك بن زيادة الله الطنبجي قراءة عليه عن ابي بكر فضل ٠٠٠٠ بن محمد بن فضل الكاتب عن ابي سليمان عبد السلام بن السمع الزهرادي الشافعي عن ابي عبد الله الحسن^(٢) بن احمد بن برجة لقيه باليمن عن ابي عمر (الزاهد) رحمه الله .

[٠٠٠٠] وحدثني به ايضاً غير واحد من شيوخي رحمهم الله منهم ابو الحسن علي ابن عبد الله بن موهب وابو عبد الله محمد بن سليمان الذهري رحمهم الله عن الشيخ ابي العباس احمد بن عمر بن أنس المذري ثم الدلائي قال حدثني به ابو بكر محمد بن سعيد بن سحنويه الاسفرائني قال حدثنا ابو اسحق ابراهيم بن بُندار البارع الضرير باصفرائن سنة ٣٧١ هـ قال حدثنا ابو عمر محمد بن عبد الواحد المطرز الزاهد المعروف بـ غلام ثعلب مؤلفه رحمه الله اه .

قال العاجز وابو عبد الله العامري هو راوي نسختنا عن ابي عمر جاء ذكره في الباب الثامن عشر .

ترجمة ابي عمر ٢٦١ - ٣٤٥ هـ = عن فهرست ابن النديم ٧٦ و ٧٧ ونزهة الألباء للكمال ابن الأتباري (٣٤٥ - ٣٥٤) ومجمع الادباء (٧ : ٢٦ - ٣٠) ووفيات

(١) وهو الذي اساء المثنبي اليه اذ قال :

بها نبطني من اهل السواد يُدرّس انساب اهل الفلا

(٢) وفيما تقدم الحسين ولم أقف على ترجمته .

الأعيان سنة ١٣١٠ هـ (١ : ٥٠٠ و ٥٠١) وتذكرة الحفاظ للذهبي (٣ : ٨٤ - ٨٦)
وطبقات الشافعية لابن السبكي (٢ : ١٧١) ولسان الميزان لابن حجر (٥ : ٢٦٨)
وبغية الوعاة (٦٩) وغيرها .

اسمه ونسبه وبلده = هو ابو عمر محمد بن عبد الواحد بن ابي هاشم الباوردي المطرز
الزاهد غلام ثعلب . لم يزد احد من مترجميه شيئاً على هذا وهو بغدادى المنشأ قال النديم
وكان ينزل في سكة ابي العنبر وجاء عنده بعد أسطر (مثله ابي العنبر) ولم يذكرهما يافوت
في مجعده . و باوردد الذي أسب اليه هو بليدة خراسان أبوردد الذي منها ابو المظفر الأبوردي
الشاعر وكانت صناعة ابي عمر تطريز الثياب فسمي من اجل ذلك المطرز و ابو عمرو بالواو
والمطرزي بياء النسبة على ما جاء في خزانة البغدادي تصحيفان . ولم يذكره السمعاني في
ترجمة المطرز من أنسابه قال ابن خلدكان ولكن ذكره في ترجمة غلام ثعلب أقول ولكني
لم أجده في طبعة الانساب لافي غلام ثعلب ولا في الباوردي ايضاً . واما تسميته بالزهد
فما أدري ما وجهه غير ان ابا بكر بن خير الاشبيلي روى بسنده الى ابي ذر الهروي أنه
قال ابو عمر المطرز الزاهد زاهد في الدنيا والآخرة ولعله كما قال ^(١) ابو نصر المنازي
وقد شكك اليه ابو العلاء حسد الناس وكذبهم عليه « على ماذا حسدوك فقد تركت لم
الدنيا والآخرة » فقال ابو العلاء والآخرة !!! وجعل يكررها اي انه نبذ أبا عمر
وآذاه بالطمع .

شيوخه وتلامذته = صحب ابا العباس احمد بن يحيى ثعلباً زماناً طويلاً واكثر
من النقل عنه ولذلك سمي غلام ثعلب و يظهر من اليواقيت انه اخذ عن المبرّد ايضاً
وقال النديم ^(٢) في كتاب الألفاظ لكثوم بن عمرو العتاسي انه رواء ابو عمر الزاهد عن
المبرّد قال وهذا طريق . وسمع الحديث من موسى بن سهل الوشاء ومحمد بن يونس
الكديمي واحمد بن عبيد الله الترمذي و ابراهيم بن الهيثم البلدي واحمد بن سعيد الجبال
و بشر بن موسى الاسدي و جماعة غيرهم . روى ابن ^(٣) القصارح عن شيخه ابي الطيب

(١) انظر ابو العلاء وما اليه ص ٢٢٣ . (٢) ص ١٢١ .

(٣) رسالته سنة ١٣٣١ هـ ص ٢١١ .

الذهبي قال : قرأت على أبي عمر الفصيح وإصلاح المنطق حفظاً وقال لي أبو عمر كنت أعلق اللغة عن ثعلب على خرف واجلس على دجلة أحفظها وارمي بها . قال الذهبي ولا أعلمه رحل .

أخذ عنه أبو علي الحافني الأديب من علماء حضرة سيف الدولة وصاحب الرسالة الموضحة لكشف مسأدي المنبئي وأبو القاسم ابن برهان (بفتح الباء) وأبو علي القالي وابن خالويه وأبو اسحق^(١) الطبري وهو غلام^(٢) أبي عمر الزاهد وأبو عبيد الله المرزباني صاحب الموشح وأبو الفضل ابن حنابلة المحدث وزر كافور وأبو عبد الله الحسين^(٣) بن أحمد بن برهية العباسي راوي نسختنا من المداخل عن أبي عمر وأبو سليمان عبد السلام بن السمح الموروري الشافعي راوي تأليف أبي عمر عنه ما خلا المداخل فإنه أخذ عن أبي عبد الله العباسي عن أبي عمر وهو الذي أدخلها الأندلس وأبو الفتح عبيد الله بن أحمد النحوي جرجنج صاحب ابن دريد وراوي جمهرته وأبو محمد الصفار وأبو محمد ابن سعد الطبراني وأبو محمد الحجازي (ولعله وهب) وأبو الطيب اللغوي وآخرون وجمهر بن محمد بن جعفر الطيالسي صاحب المكارثة عند المذاكرة وأبو بكر أحمد بن إبراهيم المقرئ الجلاء^(٤) وأبو الحسين بن بشران .

وروي عنه أبو الحسن محمد بن^(٥) رزقويه والحاكم وابن منده والقاضي أبو القاسم بن المنذر وأبو الحسين بن بشران وعلي بن أحمد الرزاز وأبو علي بن شاذان وهو آخر من حدث عنه ومحمد^(٥) بن أحمد بن القاسم المحاملي .

قال الذهبي قرأت على أبي المعالي أحمد بن اسحق المؤبدي أخبركم ظفر بن سالم ببغداد أخبرنا هبة الله بن أحمد الشبلي سنة ٥٥٧ أخبرنا أبو الغنائم محمد بن علي بن الحسن سنة ٤٧٨ أخبرنا محمد بن أحمد بن القاسم المحاملي سنة ٤٠٧ أخبرنا أبو عمر الزاهد أخبرنا

(١) لعله هو الذي سماه ابن خيبر كما مر أبا اسحق إبراهيم بن بندار الباربع الضرير

(٢) نشوار الحاضرة ١٤٤ . (٣) من عند ابن خيبر وجاء عنده أخرى الحسن .

(٤) وفي بعض الكتب بتقديم الزاي وفي بعضها رزق . (٥) كذا عند الذهبي وعند

ابن السبكي أحمد بن عبد الله المحاملي .

موسى ابن سهل الوشاء اخبرنا اسحق الازرق اخبرنا سفيان عن عاصم ابن عبيد الله عن سالم عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لا يصور عبد صورة الا قبل له يوم القيامة احي ما خلقت . .

قال الخطيب سمعت غير واحد يحكي ان الاشراف والكتاب واهل الادب كانوا يحضرون عند ابي عمر الزاهد ليسمعوا منه كتب ثعلب وغيرها وكانت قد جمعت جزءاً في فضائل معاوية فكان لا يمكن احداً من السماع منه حتى يبتدىء بقراءة ذلك الجزء قال ابن حجر رأيت فيه وفيه اشياء كثيرة موضوعة والآفة فيها عن غيره . ولكن النديم غالى لتشيعه في الطعن عليه فقال « كان نهاية في النصب والميل على علي عليه السلام وكان يقول انه شاعر مع عاميته فمن شعره :

اذا ما الرافض الشامي تمت معايبه تختم في يمينه
فأما ان اتاك بسمت وجه فان الرض باد في جبينه

ويكفيه جهلاً هذا الشعر . . أقول : ان جمع فضائل معاوية ليس من النصب في شيء غير ان النديم قد صرح بحضه عن زبده وابدي بما عنده والبيتين اظنها منقولين لضعف بينهما ولأن الرض والتختم باليمين لم يكونا مخصوصين بالشأم وهو الذي عانى المتاعب حتى بعد وفاته كما سيأتي على ابدي روافض الكرخ . ونراه في الباب الاول يسمي علياً بامير المؤمنين وفي الباب التاسع عشر بولي الله وحبيبه . وبأنك بيت لأبي عمر يدل على انه وان لم يكن شاعراً الا انه لم يكن بلغ هذا المبلغ على ان هذه الشكاة كما قيل : (ونلك شكاة ظاهر عنك عارها)

فلأبي عمر أسوة بخيار علماء العربية المنبوزين بذلك قال ابو علي^(١) النخعي أكثر رواة العرب فيما بلغني عنهم إما خوارج وإما شعوبية كأبي عبيدة معمر بن المثنى وابي حاتم سهل السجستاني وفلان وفلان وعدد جماعة ومنهم ابو خليفة الجحجي وياقوت الحموي . وقال ابن حجر بعد ان نقل بعض قول النديم قلت هذا أوضح الأدلة على ان النديم رافضي لان هذه طريقتهم يسمون اهل السنة عامة واهل الرض خاصة وقال في ترجمة النديم انه

غير موثوق به ومصدقه المذكور ينادي على من صنفه بالاعتزال والزبغ نسأل الله السلامة ونقل عن تاريخ الاسلام للذهبي انه معتزلي شيعي ثم قال لما طالعته كتابه ظهر لي انه رافضي معتزلي فانه يسمي اهل السنة الحشوية ويسمي الأشاعرة المجبرة ويسمي كل من لم يكن شيعياً عامياً ثم ذكر جملة من افترأته وافتياتاته .

كرمه مع ضيق ذات يده — قالوا ان اشتغاله بالعلوم واكتسابها قد منعه عن اكتساب الرزق والتجمل له فلم يزل مضيقاً عليه فيجترع غصص الحياة النكداء ويلتصق بالدفعاء على بنجار كريم وطيب عنصر وخيم . حدثت عباس بن محمد النكلواذاني قال سمعت ابا عمر الزاهد يقول ترك قضاء حقوق الاخوان مذلة وفي قضائها رفعة فاحمدوا الله تعالى على ذلك وصارعوا في قضاء حوائجهم ومسارهم فكافؤوا عليه . وقال تليذه الحاتمي اعتلت فتأخرت عن مجلس ابي عمر الزاهد قال فسأل عني لما تراخت الايام فقيل له انه كان عليلاً فجاءني من الغد بعدوني فاتفق ابي كنت قد خرجت من داري الى الحمام فكاتب بخطه على بابي باسفيداج :

وأعجب شيء سمعنا به عليل يعاد فلا يوجد-

قال والبيت له . وقال ابو الحسن المرزباني انه كان ابن ماسي ينفذ الى ابي عمر الزاهد وقتاً بوقت كفايته فقطع ذلك عنه مدة اعذر ثم انفذ اليه جملة ما كان في راتبه وكتب اليه رقعة يعتذر اليه من تأخير ذلك فردّه وامر بعض من كان عنده من اصحابه ان يكتب على ظهر رقعته :

اكرمنا فملكنا وتركنا فأرحنا

وايم الله ان هذا هو الغني ولكن الذهبي قال انه وان كان الامر كما قال لكنه لم يحسن الرد اذ قد كان تملكه بالاحسان القديم فما تغير القمق واما التأخر فجبره الحسن بتكليفه وباعتذاره قلت ولكنه انتهمز فرصة فكالك الرقعة فقد احسن الى نفسه اذ لم يحسن الى غيره . قال الخطيب وابن ماسي لا شك انه ابراهيم بن ايوب والد ابي محمد .

سمة حفظه وسيلان ذهنه بحيث جرّ له شهمة التزبد والاختلاق وبعض فضائله ==

عده ابو بكر ^(١) الزبدي في الطبقة الخامسة من اللغويين الكوفيين . قالوا انه كان اكثر ما يلي تصانيفه يلقيها بلسانه من غير صحيفة وكان كما قال ^(٢) علي ابن ابي علي عن ابيه ومن الرواة الذين لم يرقط احفظ منهم ابو عمر الزاهد امل من حفظه ثلاثين الف ورقة في اللغة فيما بلغني وكان لسمة حفظه يطعن عليه بعض اهل الادب ولا يوثقونه في علم اللغة حتى قال عبيد الله ابن ابي الفتح (او الازهر كما هو في لسان الميزان) لو طار طائر في الجو لقال ابو عمر الزاهد حدثنا ثعلب عن ابن الاعرابي و يذكر في معنى ذلك شيئاً . قال ابن خلكان وكان ينقل غريب اللغة وحوشها واكثر ما نقل ابو محمد بن السيد البطليوسي في كتاب المثلث عنه وحكى عنه غرائب . وقال ابو الفتح عبيد الله بن احمد الفخري أنشدنا ابو العباس البشكري في مجلس ابي عمر محمد بن عبد الواحد يمدحه :

ابو عمر يسمو من العلم مرئياً	يزل مساميه ويردى مطاوله
فلو أني أقسمت ما كنت حائثاً	بان لم ير الراؤون حبراً يعادله
هو الشخت جمعاً والسمين فضيلة	فأعجب بهزول سمان فضائله
تضمن من دون الجناحين زائراً	تغيب على من لج فيه سوا حله
إذا قلت شاربناً أو آخر علمه	لنحور حتى قلت هذي أوائله

وقال النديم اسوء رأيه في معتقده سمعت جماعة من العلماء يصفون حكايته وأنفسوا به الى التزبد ولا غرو ان صاحبنا كان منبوزاً بذلك فهذا شيخ المعرة يقول في لزومه :

توَّخَّ نقل ابي زبد وكتب ابي عمرو وخل كلاماً في ابي عمر

وما نأذا أنقل لك ثلاث حكايات في ذلك ثم أجيب عنها . قالوا كان يسأل عن الشيء الذي يقدر السائل انه قد وضعه فيجيب عنه ثم يسأل عنه بعد سنة فيجيب بذلك الجواب و يروى :

(١) مختصر طبقاته المطبوع برومة ص ١٤٧ . (٢) في النزعة والأدباء ابو علي ابن ابي علي وفي الحفاظ علي بن علي وكه تصحيف وهو القاضي النخعي الاصغر ابو القاسم علي بن القاضي النخعي الاوسط ابي علي المحسن (بكسر السين المشددة) ابن القاضي النخعي الكبير الشاعر ابي القاسم علي . والأوسط هو صاحب النشوار والفريج بعد الشدة والمشيحاد راجع تراجمهم وأخبارهم ابو العلاء وما اليه ص ١٣٠ - ١٣٤ .

(١) ان جماعة من اهل بغداد اجتازوا على قنطرة الصراة ونذاكروا كذبه فقال بعضهم انا اصحف له القنطرة واسأله عنها فننظر ماذا يجيب . فلما صرنا بين يديه قال له أيها الشيخ ما المرطني عند العرب فقال كذا وكذا وذكر شيئاً فتضاحك الجماعة وانصرفوا فلما كان بعد شهر أرسلوا اليه شخصاً آخر فسأله عن المرطني فقال أليس قد سئلت عن هذه المسألة منذ كذا وكذا ثم قال هو كذا وكذا كما أجاب أولاً قال القوم فما ندري من اي الامرين نجيب : أمن حفظه ان كان عالماً ام من ذكائه ان كان كذاباً فان كان عالماً فهو اتساع عجيب وان كان كذاباً فكيف لناول ذكاؤه المسألة ونذكر الوقت بعد ان مرّ عليه زمان فأجاب بذلك الجواب بعينه اه .

(٢) قال الخطيب وكاف معز الدولة قد قلّد شرطة بغداد غلاماً تركياً مملوكاً يعرف بخواجا فبلغ ابا عمر الزاهد وكان يلي كتاب الياقوتة في اللغة فقال للجماعة لي في مجلس الاملاء اكتبوا ياقوتة خواجا الخواج في اصل اللغة الجوع ثم فرّع على هذا باباً باباً وأملأ عليهم فاستعظم الناس كذبه وتبعوه اه .

(٣) حكى رئيس الرؤساء ابو القاسم علي بن الحسن عمن حدثه ان ابا عمر كان مؤدب ولده القاضي ابي عمر محمد بن يوسف فأملى على الغلام نحواً من ثلاثين مسألة في اللغة وذكر غريبها وختمها ببيتين من الشعر وحضر ابو بكر بن دريد وابو بكر بن الأنباري وابو بكر ابن مقسّم العطار المقرئ عند القاضي فعرض عليهم تلك المسائل فما عرفوا منها شيئاً وانكروا الشعر فقال لهم القاضي ما نقولون فيها فقال ابن الأنباري انا مشغول بتصنيف مشكل القرآن ولست أقول شيئاً وقال ابن مقسّم مثل ذلك واعتذر باشتغاله بالقرآن (وفي بعض الكتب بالقرآن) وقال ابن دريد هذه المسائل من موضوعات ابي عمر ولا اصل لشيء منها في اللغة وانصرفوا . فبلغ ذلك ابا عمر فاجتمع بالقاضي وسأله احضار دواوين جماعة من قدماء الشعراء عيّنهم ففتح القاضي خزانته وأخرج له تلك الدواوين فلم يزل ابو عمر يعمد الى كل مسألة منها ويخرج لها شاهداً من تلك الدواوين ويعرضه على القاضي حتى استوفى جميع المسائل ثم قال وهذان البيتان أنشدتهما ثعلب بمحضرة القاضي وكتبهما القاضي بخطه على ظهر الكتاب الفلاني فأحضر القاضي الكتاب فوجد البيتين

على ظهره كما ذكر ابو عمر وانتهت القصة الى ابن دريد فلم يذكر ابا عمر بلفظة الى ان مات اه .

فأنت ترى انه لم يأخذ احد على ابي عمر كلمة لم يعرف لها مستنداً من كلام العرب . ولئن كانت كذب ابي عمر يروج على مثل هؤلاء الجهابذة فما اكبره اذاً وما اضعف منزلتهم . وقد قالوا ان من حفظ حجة على من لم يحفظ وان زيادة الثقة مقبولة فلم يبق الا امر العجب وحيرة الناس في ذكائه . فاما النديم فقد عرف ما قاله حافظاً الحديث في شأن تجريه وامانته واما جنيح فانه وان كان من تلامذة ابي عمر فانه من خصيصي اصحاب ابن دريد وهو راوي جمهرته وحامل علمه وكان ابن دريد يطعن على ابي عمر كما قد عرفت فلعل هذا الداء سرى اليه من شيخه ولعل اعجابه به حمله على تسليم رأيه في معاصر له وقد نقرر عند المحدثين وهم اصحاب هذا الشأن وفرسان هذا الميدان ان المعاصرين والاقراء لا يعبأ بقول بعضهم في بعض ولئن جئنا لذلك لم يسلم لنا احد ولا ابو بكر بن دريد نفسه فهذا نبطويه وصاحبه ابو منصور ^(١) الازهري يرميان ابا بكر بكل سوءة سوءاً وحسب ابي عمر بتوثيق ^(٢) اصحاب الحديث له بلا خلاف فقد رووا ان المحدثين كانوا يوثقونه وقال الخطيب البغدادي رأيت جميع شيوخنا يوثقونه ويصدقونه :

اذا رضى علي بن قشير رحمه الله اعجبني رضاه

واما اصل الخواج ^(٣) فقال ابو علي الحاتمي اخرجنا في امالي (ابي موسى) الخامض عن ثعلب عن ابن الاعرابي الخواج الجوع . ونقل الذهبي عن رئيس الرؤساء قال قد

(١) قال في مقدمة تهذيبه (ادبا ٦ : ٤٨٦ والمزهر ١ : ١٥٨) ومن ألف الكتب في زماننا فرمي بافتعال العربية وتوليد الألفاظ وإدخال ما ليس من كلام العرب في كلامها ابو بكر بن دريد وقد سألت عنه ابراهيم بن عرفة يعني نبطويه فلم يعبأ به ولم يوثقه في روايته الخ . (٢) قال ابن جني في الخصائص (المزهر ٢ : ٢٦٢) والله ابو العباس احمد بن يحيى ولقد دمه في نفوس اصحاب الحديث ثقة وامانة وعصمة وحصانة وهم عيار هذا الشأن واساس هذا البنيان . (٣) الكلمة أغفلها صاحبها اللسان والتاج فليستدرك عليهما .

رأيت أشياء كثيرة مما استنكر على أبي عمر ونسب إلى الكذب فيها مدونة في كتب أئمة العلم وخاصة في غريب المصنف لأبي عبيد أو كما قال . والاصل في ذلك ان رواية الكوفة معروفون بسعة الاطلاع وغزارة المادة ووفرة الرواية وبالتسامح في امر التحفظ خلافاً للبصريين الذين قلت روايتهم لتثبتهم وعدم مسامحتهم . فقد صدق ما قاله تليذ أبي عمر ابو القاسم عبد الواحد بن بَرهان الاسدي فيه : « لم يتكلم في اللغة احد من الاولين والآخرين باحسن من كلام أبي عمر الزاهد » .

وفاته = وُلِدَ بلا خلاف سنة ٢٦١ هـ وعن ابن رزقويه تليذه انه توفي سنة ٣٤٤ هـ قال الخطيب والصحيح انه توفي يوم الاحد (ودفن يوم الاثنين) ثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة ٣٤٥ هـ وذلك في خلافة المطيع ودفن في الصفة التي تقابل قبر معروف الكرخي وبينها عرض الطريق ولعل سبب إبطائهم بنعشه الى اليوم التسالي هو ما نقلناه عن تاريخ ابن الوردي في كتابنا على أبي العلاء^(١) عن أبي العلاء ان البغداديين حدثوه بها انه لما عبرت النوبة (اهل السنة) بأبي عمر [الزاهد] في الكرخ وم شيعة بغداد وحوله التكبير والتهليل قال فائل هذا والله لا كمن دُفِنَ لبلا يعني فاطمة عليها السلام فصار اهل الكرخ وقُتل بينهم جماعة وطُرح ابو عمر عن النش وجرح جراحاً كثيرة .

ثبت تأليفه مرتبة على حروف المعجم

- (١) كتاب البهوع
- (٢) كتاب الذئابة
- (٣) كتاب تفسير اسماء الشعراء كما عند النديم وفي الادباء القراء وفي الكشف اسماء الشعراء

(٤) جزء كذا في الكشف (واعلمه الذي في فضائل معاوية المار ذكره)

(٥) حل المداخل مر ذكره

(٦) كتاب الساعات

(٧) كتاب السربيع

(١) ص ١٤٨ .

(٨) شرح الفصح

(٩) كتاب الشورى

(١٠) كتاب العشرات أحوال عليه باقوت في بلدانه كثيراً وقد بقي منه نسخة بخرانة برلين انظر فهرستها رقم ٧٠١٤ واوله حدثنا ابن خالويه هذا كتاب العشرات لابن عمر الزاهد ألفها للحضري (كذا مشكولاً) صاحب ابي عمر القاضي خاصة وكان ابو عمر يعارض بكتبه وبؤلف له فاعتل ابو عمر فأرسل اليه ان انفذ اليّ اجرة شهر فاني عليل الخ وهو في ٨٧ ورقة .

(١١) غريب الحديث صنّفه على .سند احمد بن حنبل قال النديم^(١) هو للحضري (كذا وطبعة فهرست مصحفة للغاية) ألفه عن ابي عمر الزاهد قال ابن خلكان وكان يستحسنه جداً . وذكره ابن الاثير في مقدمة نهايته ايضاً .

(١٢) فائت الجهرة والرد على ابن دريد وقف عليه البغدادي وأحوال^(٢) عليه .

(١٣) فائت العين

(١٤) فائت الفصح جزء لطيف كنت رأيت منه نسخة قبل نحو خمسة أعوام عند من يحنّكه وفي فهرست^(٣) ابن خير حدثني به ابو عبد الله جعفر بن محمد بن مكي عن ابي مروان عبد الملك بن سراج (ككتاب) عن ابي القاسم ابن الاوفلي عن ابي عمر بن ابي الحباب عن ابي علي البغدادي عن ابي عمر الزاهد — وهو في كراسة .

(١٥) فائت المستحسن الآتي

(١٦) كتاب القبائل

(١٧) كتاب الجرجاني

(١٨) الكتاب الحضري (الادباء الحضري) كتاب على الكتابات عمله للحضري

وانحله اياه .

(١٩) ما انكره الاعراب على ابي عبيد فيما رواه او صنّفه كذا عند النديم وغيره وفي الادباء والبنية ابي عبيدة ولعله تصحيف .

(٢٠) كتاب المداخل هو الذي نعرضه على الأنظار ومرة وصفه وذكر يادات له عليه والحل أيضاً .

(٢١) كتاب المرجان

(٢٢) كتاب المستحسن في اللغة ومرفائنه

(٢٣) مجمع الشعراء في الكشف فقط

(٢٤) كتاب المكنون والمكتوم

(٢٥) كتاب الموشح وفي الوفيات فقط الموضح

(٢٦) كتاب النوادر لأدري هل هو كتاب له أو هو نوادر أبي شبل العقيلي الذي

قال فيه النديم^(١) رأيت بخط عتيق باصلاح أبي عمر الزاهد .

(٢٧) كتاب اليواقيت أو الياقوتة وقف عليه صاحب^(٢) الخزانة وقال ابن خيبر^(٣)

الأوشيلي حدثني به الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن ميمر رحمه الله قال حدثني به الوز يرا أبو بكر محمد بن هشام بن محمد المصنف قال حدثني به أبي رحمه الله وأبو الحسن علي بن محمد بن أبي الحسين قراءة مني عليهما وقالوا معاً قرأناه على أبي سليمان عبد السلام بن السمح الموروري الشافعي قال قرأته ببغداد على أبي عمر محمد بن عبد الواحد المطرزي الزاهد غلام ثعلب وذلك في شهري ربيع من سنة ٣٣٤ هـ وذكر النديم خبر هذا الكتاب وكيف صح قال قرأت بخط أبي الفتح عبيد الله بن أحمد النحوي عليه وكان صدوقاً بجاناً منقراً وكان أبو عمر ٥٠٠٠ ابتداءً باملاء هذا الكتاب يوم الخميس لليلة بقيت من المحرم سنة ٣٢٦ هـ في جامع المدينة مدينة أبي جعفر ارتجالاً من غير كتاب ولادستور فمضى في الاملاء مجلساً مجلساً الى ان انتهى الى آخره وكتب ما املاء مجلساً مجلساً ثم رأى الزيادة فيه فزاد في أضعاف ما أملى وأرتجل يواقيت أخر واختم بهذه الزيادة بأحمد الصفار لملازمته ونكرير قراءته لهذا الكتاب على أبي عمر

(١) ص ٤٦ . (٢) انظر حوالاته (١ : ١١ : ١٦٥ — ٢ : ٥٢٥ — ٣ : ٤٢٩)

(٣) ص ٣٥٧ — وفي ص ٦٠ إسناد ياقوتة الصراط في غريب القرآن عن أبي بكر

أحمد بن إبراهيم المقرئ عن أبي عمر ، وعن أبي الحسين بن بشران عنه . ومن ذلك يظهر انهم كانوا يفرزون هذه الياقوتة من جملة اليواقيت .

فأخذت الزيادة منه . ثم جمع الناس على قراءة ابي اسحق الطبري له وسمى هذه القراءة الفذاكة فقرأ عليه وسمعه الناس ثم زاد فيه بعد ذلك فجمعت انا في كتابي الزيادات كلها وبدأت بقراءة الكتاب عليه يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ذي القعدة سنة ٣٢٩ هـ الى ان فرغت منه في شهر ربيع الآخر سنة ٣٣١ هـ وحضرتُ النسخ كلها عند قراءتي نسخة ابي اسحق الطبري ونسخة ابي محمد الصفار ونسخة ابي محمد ابن سعد الطبري ونسخة ابي محمد الحجازي وزاد لي في قراءتي عليه اشياء . فتوافقنا في الكتاب كله من اوله الى آخره ثم ارتجل بعد ذلك بواقيت آخر زيادات في أضعاف الكتاب واختص بهذه الزيادة ابو محمد وذهب للازمته . ثم جمع الناس ووعدهم بعرض ابي اسحق عليه هذا الكتاب ونكون آخر عرضة ينقر عليها الكتاب فلا يكون بعدها زيادة . وسمى هذه العرضة الجهرانية واجتمع الناس يوم الثلاثاء لاربع عشرة ليلة خلت من جمادى الاولى سنة ٣٣١ هـ في منزله بمحضرة (مثله ابي العنبر) فأملى على الناس ما نسخته :

« قال ابو عمر محمد بن عبد الواحد هذه العرضة هي التي نفرد بها ابو اسحق الطبري آخر عرضة أسمعها بعده (بعدها) فمن روى عني في هذه النسخة هذه العرضة حرفاً واحداً ليس من قولي فهو كذاب علي . وهي من الساعة ٠٠٠٠ الى الساعة ٠٠٠٠ من قراءة ابي اسحق على سائر الناس وانا أسمعها حرفاً حرفاً » . قال ابو الفتح وبدأ بهذه العرضة يوم الثلاثاء لاربع عشرة ليلة خلت من جمادى الاولى سنة ٣٣١ هـ اه على طوله . أقول والله من قال :

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قرأ عينا بالآوياب المسافر

قال العاجز وقفت بخزانة رامبور على نسخة مضبوطة صحيحة من شرح الفصيح تأليف ابي القاسم عبد الله بن عبد الرحيم الاصفهاني وقد بقيت في ملك الشيخ محمد الشبيبي فاتي بيت الله الحرام . وثبت على الصفحة الاولى منه فصل من البواقيت سطاً عليه المجلد وهذا نصه وفصه : قال الفرءاء^(١) كلام الفصحاء من العرب أحببته فهو محبوب على غير القياس الا ان عنترة جاء به على القياس وقال :

(١) حكي مثله الأزهرى عن الفرءاء أيضاً كما في اللسان .

ولقد نزلت فلا نظني غيره مني بمنزلة الحب المكرم
ومن العرب من يقول حبيته أرحبه ومنهم من يقول إرحبه قال وأنشدني ابو ثروان :
إرحب لحبها السودان حتى إرحب لحبها سود الكلاب
قال الفراء فكسر الالف وفتح الياء . وسلطان «حتى» ان ترفع وت نصب وتخفض
على ما نه من الاعراب نقول من ذلك اكلت السمكة حتى رأسها وحتى رأسها
وحتى رأسها قال وأنشدني^(١) الكسائي :

التي الصحيفة كي يخفف رحله والزاد حتى نعلم القاهما
ونهله ونهله . وسلطانها على المد [سقبل] فننصبه وترفعه فننصبه على بابه
(اي باضمار أن) ورفعه على ان يكون في معنى الماضي . قال وقرأت القراء « وزلزلوا
حتى يقول الرسول » و« حتى يقول الرسول » اي حتى قال . وسمعت المبرد يقول وقد مثل
عنها فقال اذا رفع فعمناه وزلزلوا حتى الرسول قائل . وأنشد^(٢) نعلب والمبرد جميعا :
مطوت بهم حتى تكمل مطيهم . وحتى الجياد ما تقاد بارسان

اي حتى كالت مطيهم . قال الفراء : وأخبرني الكسائي انه سمع العرب مرت
حتى أدخلها وحتى أدخلها وما زلت اسير حتى أدخلها وحتى أدخلها ولا أزال أسير
حتى أدخلها اه . من كتاب اليواقيت^(٣) لابي عمر الزاهد .
(٢٨) كتاب يوم وليلة وقام اسمه عند البغدادي في خزائنه وقد^(٤) وقف عليه
كتاب اليوم والليلة والشهر والسنة والذهب .

عليكرة (الهند) : عبد العزيز الميني الراجكوتي

(١) لابي مروان الفخوي او للمتلحس . (٢) لامري القيس . (٣) قالوا انه املى
في آخر كتابه اليواقيت في اللغة قوله :

لما فرغنا من نظام الجوهرة اعورت العين وفؤض الجوهرة
ووقف الفصح عند القنطرة

يريد بالجوهرة كتاب الياقوتة

(٤) راجع حوالاته في الخزانة (١ : ١١ — ٢ : ٢٩١ — ٣ : ٤٨٣ و ٤٨٤)

هواء المدن (١)

لا يغرب عن معارفكم سادتي ان دلم الصحة أس من الأسس الراسخة المتينة التي يشيد عليها هذا البناء البشري وأنه اذا انحصر في فرد او أفراد لا يكون مفيداً نافعاً فلو رعى احد أفراد أسرة مؤلفة من اربعة أشخاص مثلاً علم الصحة رعاية دقيقة وحفظ دقائقه حفظاً لا تشوبه شائبة ولم يحظ الثلاثة الباقيون منه الا اسمه لما حصلت الغاية المرادة من هذا الفن ولما كسب ذلك الحافظ من حفاظه ما كان يؤمل الحصول عليه لان ما يصاحبه في نفسه ومحيطه يسيره في سبيل هذا الفن الاسامي يفسده الثلاثة الآخرون باهمالهم كيف لا وهم يسكنون معه مسكناً واحداً ويغتذون بطعام واحد ويشربون ماء واحداً . ولا تختلف حالة الأسرة هذه عن حالة كل مجتمع انساني ولا سيما عن المدن حيث الازدحام كبير ، فان علم الصحة لا يكون مفيداً الا اذا رعاه بعض السكان وأهمله بعضهم او اذا سار بموجبه الشعب جميعه ولم تسر الحكومة فان من القواعد الصحية ما هو عام يرتب على الحكومة وضع قوانينه ومراعاتها . فكيف يؤمل لمدينة من المدن هواء جيداً اذا لم تكن طرقها العامة مخططة كما تقضيها قواعد علم الصحة ولم تكن عريضة متسعة بتعدد الهواء فيها وترسل اليها الشمس أشعتها الذهبية متلفة ما يعلق بها من الجراثيم الملوثة او لم تكن منازلها مبنية على الطراز الحديث مرعية فيها شروط مهب الارباح وشروق الشمس وغروبها وسعة النوافذ ووجهتها بل كيف نرجو لمدينة هواء جيداً اذا لم تكن مياهها شروية خالية من المواد المفسدة بالصحة العامة وعارية من الجراثيم المرضية او اذا لم تكن غزيرة كافية للحاجات العامة ، بل كيف نرجو لمدينة حظاً من سلامة الصحة العامة فيها اذا لم تكن المفوزات التي تفرزها أجساد سكان تلك المدينة من بشر وحيوان مسوفة في قنوات محكمة لا تلبث منها الروائح النتنة ولا تندفق منها على سطح الارض الأقدار

(١) محاضرة القاها الاستاذ الطبيب مرشد خاطر في ردة المجمع العلمي بتاريخ ١ شباط سنة ١٩٢٣ م ولهذا المحاضرة علاقة بالمحاضرة الاخرى التي كان القاها الطبيب الموالي اليه بعنوان (تأثير الطرق في هواء المدن) راجعها في المجلد الثامن ص ٣٩٥ .

الكريهة الرائحة ولا لتسرب من جدرانها في مجاري الماء الشروب السائرة معها جنباً الى جنب او في الآبار الواقعة في نقطة منخفضة من الارض اختبارات قتالة تلوث المياه وتميت الالوف . بل اذا لم ننقل بقايا المواد الغذائية التي تملأ الطرق العامة نقلاً سريعاً وحسناً دون ان يتلوث بها المارون . ولهذا نشطت اليوم المدن وهبت للسير في مضمار علم الصحة ففاخرت كل عاصمة ومدينة سواها بجماها وجمعها لشتات القواعد الصحية الحديثة فلم تعد لنفوس النفس الى المدن القديمة الضيقة الطرق التي تطوقها الأسوار واخذت من كل جهاتها ، الى تلك المدن التي كانت تظلم شوارعها بعد غروب الشمس فلا نور يضيئها ليلاً ، الى تلك المدن التي لم تكن ترصف أسواقها وجاداتها رصفاً يمنع ذرات الغبار عن الاختلاط بالهواء المستنشق بل كانت حفرًا ومجاري تسيل فيها مياه الشتاء والمياه القذرة ممزجة ، بل لنفوس النفس في ايامنا الحاضرة الى المدن الحديثة البناء الرائعة الهندسة المتسعة الشوارع المرصوفة الجواد ، ولم يكن ذلك الانقلاب الغريب في الافكار والتطور السريع في الهندسة الا نتيجة اكتشاف صغير قام به احد العلماء الفرنسيين الذي مر على ولادته قرن كامل اريد بذلك الاكتشاف الجرثوم الذي لا يرى وبذلك العلامة باستور قلت ان الاكتشاف صغير وهو صغير كبير صغير لان العين المجردة لا تراه ولانه لا يدرك الا بعد تكبيره بضع مئات من المرات وكبير لانه نفخ في العالم روحاً جديدة فسارت تلك الروح من تحت مجهر ذلك العلامة تدب في جميع اطراف البسيطة ملقمة في النفوس المضطربة سلاماً وفي القلوب الهالعة من الامراض الطمثنائاً وسكوناً ، كبير لانه دك على الرغم من صغره كل ما قامت به العقول المفكرة والايدي العاملة ومد سيطرته الى الارض جميعها . فالى ذلك العلامة الكبير نوجه من هذا المنبر كلمة الاجلال والتكريم .

ان علم الصحة في المدن لغز من الالغاز المعلقة التي لا يحلها الا من كان عالماً بها متضلماً منها ولهذا وجب ان لا يتولى الشؤون الصحية في المدن الا من كانت اختصاصياً بها فلا البلديات ولا المهندسون ولا الحكومة تحسن عملاً ان لم تسترشد بارشاد رئيس صحي اختصاصي بدير دفة العمل ويسير بالاصلاحات طبقاً للقواعد الصحية الحديثة . فيفهم مما تقدم ان علم الصحة ان لم تشرك به الجماعة قبل الافراد والحكومة قبل

الجماعة لا يأتي بشار لذينة وفوائد تذكر ولهذا اردت ان أبين لكم في هذه المحاضرة شرطاً واحداً من الشروط الاربعة التي تحسن بها الصحة العامة في المدن وهو جودة الهواء وما يؤثر فيه من المؤثرات فيفسده او يصلحه تاركاً الشروط الثلاثة وهي الطرق العامة والقنوات والماء الشروب الى محاضرات أخرى فاقول :

- سبعة مؤثرات تؤثر في هواء المدن فتصلحه اذا صلحت ونفسده اذا فسدت وهي :
- ١ = الموقع الجغرافي وينطوي تحته اربعة امور : الارتفاع عن سطح البحر وتركيب الارض الجيولوجي ومسيل المياه ومهب الرياح .
 - ٢ = غرس الأشجار ووجود الساحات الفسيحة .
 - ٣ = تلوث الهواء بغير الطرق العامة الناقل للجراثيم المرضية .
 - ٤ = تلوثه بالروائح الكريهة والدخان وما ينبعث من المصانع والمعامل من غبار المعادن وسواها .

٥ = ضرر المدافن فيه

٦ = فسادة بنقل المواد القائطة .

- ٧ = تأثير حالة الطرق العامة فيه وينطوي تحته ميل الطرق وهيئتها وأرصفتها ومجارها ووجهتها وتعرضها للشمس وهندسة بيوتها .
- وسأقتصر في هذه المحاضرة على درس المؤثرات الثلاثة الاولى تاركاً المؤثرات الاربعة الباقية لان كلاً منها يستغرق محاضرة خاصة .

(١) الموقع الجغرافي = لا اجد بداً قبل البدء بالكلام عن الموقع الجغرافي وتأثيره في جودة الهواء وفساده من ان أنفي اعتقاداً كان ولم يزل شائعاً اعتقاداً نقلص ظله من البلاد الاوربية بعد ان اراقت مدنها رقياً صحياً كبيراً ولا يزال شائعاً عندنا لاننا لم نسع حتى الآن الى تحسين الحالة الصحية في مدنتنا تحسيناً يحملنا على دحض ذلك الاعتقاد . شاع منذ زمن طويل ايها السادة ولعله لا يزال شائعاً حتى الآن بين السواد الاعظم منا هذا الاعتقاد الذي مؤداه : ان هواء المدن اقل ملائمة للصحة من هواء القرى لست انكر ذلك والاحصاءات القديمة كانت تثبت في القرون الماضية الا انني اليوم بعد بلوغ علم الصحة الى درجة عالية من الرقي وتوفر الشروط الصحية في المدن وفقدان هذه الشروط

في القرى أتمكن من اثبات العكس . أقول هذا عن المدن الأوروبية والأميركانية لا عن مدننا السورية وأقر وأعترف أن الهواء في مدننا لم يبلغ حتى الآن إلى درجة من الجودة تعادل جودة هواء القرى المشيدة في البر . أما في أوربا وأميركا فقد اختلفت الإحصاءات كثيراً إذ دلت إحصاءات (لانيو) عن البلاد الفرنسية سنة ١٨٨٠ أن الوفيات كانت معادلة في المدن لمائتين وأربع وأربعين وفاة في كل عشرة آلاف نسمة وإنما في القرى لم تبلغ إلا مائتين وثمانين وفاة لا غير وهذا يثبت الاعتقاد القديم إلا أنها في سنة ١٩١٢ قد اختلفت اختلافاً بيناً فإن الوفيات في المدن هبطت إلى مائة وأحدى وتسعين وفاة وبقيت القرى إلى مائة وسبع وتسعين وهذا يعني الاعتقاد القديم ويثبت ما نحن بصدده . وقد وضعت الحكومات قانوناً تحدد به عدد الوفيات حتى إذا اجتاز هذا الحد سمحت الحكومة إلى تحسين الحالة الصحية وانقاص ذلك العدد إلى حده المسموح وأما الحد الذي عينته فهو مائة وثلاث وتسعون وفاة في كل عشرة آلاف نسمة فهل نسعى إلى مراعاة هذا القانون في بلادنا ؟ سؤال ادع الجواب عنه اليكم .

أما وقد نفيت ذلك الاعتقاد نفياً مبنياً على الإحصاءات فإني أعود إلى الكلام عن الموقع الجغرافي : نقسم المدن ستة أقسام كما قسمها الدكتور فونساغريف (Fonssagrives) المدن المشيدة في السهل ، والمدن المبنية في الأودية ، والمدن البحرية ، والمدن النهرية ، والمدن القائمة على البحيرات ، والمدن الرزقية . (أي التي تكثر في أرضها المستنقعات) . أما مدن السهل التي نقيم في أرض مستوية قليلة الارتفاع عن سطح البحر وكثيرة البعد عن مجاري المياه الفزيرة فإن الشروط الصحية تتوفر فيها إذا لم تترك المياه في أرضها فتحولها إلى مستنقعات شديدة الضرر .

وأما مدن الأودية فلا يتأهلها من أشعة الشمس المنعشة إلا نذراً قليلاً لما يكننهما من الجبال فكما كان الوادي ضيقاً وعميقاً نقصت الشروط الصحية في هذه المدن . وأما المدن البحرية التي تقوم على شاطئ بحر تختلف فيه حركتنا والمد والجزر اختلافاً بيناً كبيراً فإن درجتها الصحية أحط من المدن التي تبنى على شاطئ بحر حركتنا مده وجزره خفيفتان لا يكاد يشعر بهما وذلك لأن حركة الأمواج حين المد تقذف بعيداً إلى الشاطئ المواد الموضوية الكثيرة فتتفكك وتختمر وتفسد الهواء وهذا ذلك فإن ما نصبه

المجاري والقنوات من المواد القذرة والمياه الملوثة في البحر اي كل ما يطرحه الانسان والحيوان يعود بتأثير المد الى حيث اتى فينتشر على الشاطئ بعد ان كان مقتصراً في القنوات و يفسد الهواء و يضر ضرراً جسيماً .

واما المدن النهرية فان مقامها الصحي بين المدن رفيع للغاية لان جريان النهر يحرك الهواء تحريكاً دائماً فيجده و ينقل ما فسد منه مستعيضاً عنه باصلاح فان النهر يجريان مائه الدائم يشبه موقداً تضرم فيه النيران متصلاً بخبري عال فكما ان الموقد يحدد الهواء في الغرفة آتياً بالجيد منه الى الداخل ودافعاً ما فسد وسمغن منه الى الخارج فان لجريان ماء النهر التأثير نفسه . وعدا هذا فان المياه التي تتناج المدن الكبرى الى كميات وافرة منها لقضاء الحاجات العامة لا يكاد يتوصل اليها اذا لم تحترق انهر طبيعية هذه المدنت ولهذا كانت الشروط الصحية متوفرة في المدن النهرية لغزارة المياه فيها على ان لا تلوث هذه المياه بما ينصب فيها من المجاري والمراحيض فيتناول ضررها عدا المدينة نفسها جميع القرى الواقعة تحتها .

واما مدن البحيرات فهي ذات هواء رطب للغاية سواء قامت على شاطئ البحيرة او شيدت على اعمدة مرتكزة في قعرها الا ان هذه الرطوبة قد يخفف ضررها بتأثير الريح التي تهب عاصفة في تلك المدن فتخفف من رطابة هوائها او بتأثير الحرارة العالية نفسها .
واما المدن القائمة في اراضٍ بكثرت فيها السباح اي الواقعة على مصب الانهر فهي اشد المدنت المخطاطاً من الوجهة الصحية فان البرداء (اي الملايا) تفنك بالعدد الوافر من ساكنيها .

فيستنتج مما تقدم ان دمشق وهي مدينة تحتترقها الانهر الغزيرة ذات موقع جغرافي حسن فهي قائمة في سهل تكثفه الجبال البعيدة فالى الشمال جبل قاسيون الممتد من الربرة حتى ثنية العقاب حيث بدء جبل القملون وفي سفحه حي الصالحية والمهاجرين والى الشمال الشم في جبل القملون (يوناني معناه القصب) وهو يبعد عن المدينة خمسة كيلو مترات او ستة والى الغرب الجنوبي جبل الشيخ وهو يبعد ثلاثين كيلو متراً عن دمشق و به تمتاز رياح الغربية الجنوبية الباردة في فصل الشتاء . وامام جبل الشيخ تقوم جبال الربرة والنزة وتبعد عن دمشق زهاء ثلاثين كيلو مترات والى الجنوب جبال حوران الممتدة حتى البادية

وتبعد عن دمشق ثلاثين كيلو متراً ، وإلى الشرق البادية المطلقة ومنها تهب الرياح الحارة في فصل الصيف وإلى الشرق الجنوبي تمتد الغوطة حتى بحيرة الهيجانة التي يصب بها نهر بردى تلك البقعة التي يكثر فيها السباح والمستنقعات .

فوق دمشق الجغرافي متوفرة فيه الشروط الصحية لأن الجبال التي تكلف المدينة بعيدة لا تمنع الشمس عن إرسال أشعتها القاتلة للجراثيم ولا توقف الرياح العاصفة عن الوصول إلى المدينة فتجدد حتى في أضيقت أزقتها الهواء تجديداً دائماً . وانما وجود الغوطة في الجهة الشرقية من المدينة يجعل البعوض يتكاثر والبرداء وحى الأيام الثلاثة لنفسيان نفسياً شديداً وليس الذئب في ذلك على الطبيعة وحدها ولكن مظم الذئب علينا فلواهتمت الحكومة بتجفيف تلك المستنقعات معها كلفها الأمر من المال لحالات الحالة الصحية وهو مشروع نفوق فائده أكبر المصاريف وأعظمها .

(أ) الارتفاع عن سطح البحر : أمر الآن إلى الفروع الأولى من الفروع الأربعة التي انطوي تحت الموقع الجغرافي وهو الارتفاع عن سطح البحر . أن الارتفاع يؤثر شديداً في هواء المدن فيصلحه أو يفسده ولعله أقوى المؤثرات وأهمها حتى أن بعض علماء الصحة يرى فرقاً بينا بين حي وآخر من أحياء مدينة واحدة لا يتجاوز فرق ارتفاعها عشرين متراً أو أربعين والبرهان على ذلك جلي واضح في دمشق فإن حي الصالحية والمهاجرين القائم في سفح جبل قاسيون أجود هواء من سائر أحياء دمشق لانه أكثر ارتفاعاً منها .

ولا يظهر هذا الفرق واضحاً إلا في المدن التي لا يقل ارتفاعها عن أربع مائة متراً وفي المدن التي لا يزيد ارتفاعها عن الخمسين وأما في المدن التي يتراوح ارتفاعها بين الخمسين والأربع مائة فإن بضع عشرات من الأمتار لا تكفي لجعل فرق واضح بين حي وآخر من أحيائها وإن دمشق التي يعادل ارتفاعها في أرجائها المتوسطة ستمائة وخمسين متراً يظهر هذا الفرق فيها بين حي الصالحية والأحياء الأخرى لأنها تتجاوز حد الارتفاع الذي عيّنته وهو أربع مائة متر وهكذا يقال في بيروت وطبريا من مدن سورية وفلسطين فإن بيروت التي تعلو عن سطح البحر في أرجائها الواقعة على الشاطئ بضعة أمتار لا غير تربنا ما أرتنا دمشق من تبدل الهواء في أحيائها فإن حي الأشرفية مثلاً الذي يقع على ارتفاع خمسين متراً ونيفاً يختلف هوائه اختلافاً محسوساً عن سائر الأحياء كراس بيروت وسواه

وما ذلك الا لان المدينة واقعة تحت الحد الأدنى للارتفاع الذي عينته وما يقال في بيروت يقال في طبرية التي تنخفض عن سطح البحر المتوسط ٢٣٦ مترًا فان بين الطبقة والأخرى من بيوتها يختلف الهواء اختلافًا واضحًا .

وان للارتفاع حدًا اذا تجاوزه أضرَّ بالصحة ضررًا بليًا لان الضغط الهوائي ينقص كلما علت المدينة ، وكلما خف الضغط الهوائي نقصت كمية الاوكسجين في الهواء فينشأ عن ذلك النقص تبدل محسوس في الصحة كما أثبتت القريبات المعدبة التي أجراها كثير من الأطباء في أماكن مختلفة الارتفاع . غير انه لا مدينة من مدننا السورية تبلغ حد الارتفاع المضر لانه يقع بعد ألف وخمسمائة متر . وهذا لا ينجده الا في بعض قمم جبالنا . وغير المدن هواء متراوح ارتفاعها عن سطح البحر بين سبعمائة وألف متر .

(ب) واما من الوجهة الجيولوجية او تركيب طبقات الارض فنقسم المدن الى صخرية ورملية وصالية ولحقية وهي ارض مركبة جيولوجيًا من مواد كانت عالقة بالماء فوسبت بعد انضوب الماء منها . وقد أضيف الى هذه الاقسام الاربعة في ايامنا هذه قسم خامس وهو المدن التي تقام على ارض اصطناعية .

فالمدن الصخرية أجود هواء من سائر المدن الاخرى من الوجهة الجيولوجية هذا اذا لم تأت أسباب أخرى فتنفسد هواءها وان ما يجهل المدن الصخرية في مقدمة المدن جودة صلد ارضها اي عدم نفوذها وسيلان المواد العفنة والمياه القذرة عليها دون ان تمتصها الارض فتبقى كامنة فيها وتنتشر الاوبئة والامراض متى تيسرت لها الذرائع الملائمة .

واما المدن الرملية فلا تعد ملائمة للصحة الا متى كانت الطبقة الواقعة تحت الرمل غير صلبة لانها اذا كانت صالصة اجتمع الماء فيها ورطب الارض وكانت تلك الطبقة كخزانات للمواد العفنة تجتمع فيها فتلوث طبقة الارض السطحية وتفسد الهواء .

واما المدن اللحقية فانها مدن يكثر فيها السباح وتوفر فيها الشروط الملائمة لنمو البعوض وتكاثره ولهذا كانت البرداء (الملاريا) من الامراض التي تنتشر في هذه المدن فتنفسد هواءها .

(ج) وان لموقع المدينة بالنسبة الى انصباب المياه فيها أهمية كبرى من الوجهة الصحية فاذا كانت المدينة في قعر واد تحيط به الجبال وتصب فيه المياه المتدفقة منها

مخترفة تلك المدينة فان أرضها تكون رطبة ومضرة . ولكن معهما كان موقع المدينة فانها تعد غير صالحة للسكنى اذا كانت طبقة أرضها الصلدة واقعة على عمق قليل لان المياه بعد اختراقها الطبقة الارض القابلة لتنفوذ تجتمع في تلك الطبقة السطحية وتعمل بسهولة الى سطح الارض فتغوص جذوع النباتات والاشجار دائماً في بحيرة مائية ولا تختص تلك الارض قط هذا فضلاً عن ضررها الشديد بالصحة واما اذا كانت الطبقة الصلدة عميقة فان المياه تبعث عن سطح الارض فيجف الهواء وتخصب الارض ولهذا قال الدكتور فونساغريف إن عمق الآبار في المدينة دليل على جودة هوائها فكما كانت الآبار عميقة أخضبت الارض وجف الهواء وكما كانت آبارها سطحية فلخصب الارض ورطب الهواء .

ان دمشق متوفرة فيها من الوجهة الجيولوجية ومسيل المياه الشروط الملائمة للصحة لان آبارها عميقة لا يوصل الى الماء فيها قبل حفر عشرات من الامتار وهذا ما يجعل أرضها حطياً وهوائها جافاً لان طبقة أرضها الصلصالية عميقة .

(د) اما الارباح التي تقل الرطوبة او الخفاف فان لها الاهمية الكبرى من الوجهة الصحية لان لها حسنات وسيئات فمن حسناتها تجديد الهواء واستبدال ما أشجع منه بذرات الفحم وحامض الفحم وسائر المواد الأخرى المضرة بهواء آخر آت من البحر والجبل وصالح للتنفس وتنقية الدم وهذه التهوية الطبيعية لا بد منها في مدن يكثر عدد سكانها وتتراصف بهوتها وتقام فيها الابنية الشاهقة المتعددة الطبقات . ومن سيئاتها أنها متى كانت خفيفة حملت الغبار الملقى على الارض فتطير في الفضاء ناقلات معه الجراثيم المرضية ولهذا كانت الأرياح الهادئة شديدة الضرر لنشر حين هبوبها الاوبئة في المدن انتشاراً سريعاً فإلغافاً لهذا المحذور واتقاء لهذا الضرر الجسم يجب علينا أن نجعل الغبار ملتصقاً بالارض فتكثر من رش الأسواق والمنعطفات ولا تدع للارباح تأثيراً فيه .

فاذا عصفت الارباح شديدة في دمشق فأزعجتنا وأضررت ببعض الابنية واقتلعت بعض الاشجار وحالت دون التجول فانهم رسول أمين يجب أن تكون له من الشاكرين كيف لا وهي التي تجدد الهواء حتى في أضيق المنعطفات ، في تلك الأزقة التي تقوم

البيوت من جانبها فلا يفصل نافذة البيت الواحد عن نافذة الآخر الا متران او اقل فهي التي تأتينا بالهواء الذي من قم الجبال الشاخنة حيث لا جراثيم ولا غبار ولا مواد مضرّة .
(٢) غرس الاشجار ووجود الساحات الكبيرة = ان هذا المؤثر الثاني سيجي في جودة الهواء كثيراً ما نمر به في يومنا دون ان ننأمل ثانية واحدة بما له من الفضل علينا .

ان الاشجار التي تفرس أيها السادة ، في الشوارع الكبرى والأسواق العريضة والساحات الفسيحة المطقة التي لا بناء فيها تؤثر تأثيراً شديداً في حالة الهواء فانها من العوامل التي تبدل تركيب الهواء وتجعله صالحاً للتنفس ومن العناصر التي تصلح حالة الارض وتجففها فان أوراق الاشجار تمتص من الهواء حامض الفحم وتحوله الى فحم فلتغذي به والى اوكسجين لاحتاج اليه فتبعته بالهواء رحمة بالانسان والحيوان وان معظم الاوكسجين نلقيه الاشجار بهيئة اوزون وهو من الغازات التي عرفت اليوم قيمتها الكبيرة .

وفضلاً عن ذلك فان الاشجار تمتص قسماً كبيراً من رطوبة الهواء وقد خمن الدكتور ايفار (Ivert) ما تمتصه شجرة واحدة كبيرة مورقة بمائة لتر ماء كل يوم فكما أنها تمتص من الهواء البخار المائي فتجففه فانها تمتص من رطوبة الارض القسم الاكبر من الماء الذي تحتاج اليه في يومها بجذورها المرسلة بعيداً الى اعماق الارض . وقد قدر مرصد (مون سوري) (Mont Souris) ان الشجرة تمتص من رطوبة الارض خمسة أضعاف ما تمتص من الهواء تحت تأثير حرارة الشمس فكيف عظيمة كمية الماء الذي تمتصه أشجار احد الشوارع من أرض البيوت المشيدة على أطرافها ؟

لا ننحصر فائدة الاشجار بامتصاص رطوبة الهواء والارض ولكن الظل الذي ننشره على الارض يأتي بفوائد جليلة مدة الصيف ولا سيما في البلاد الحارة فانه بقي الكثيرين من الرعن اي خربة الشمس ، فننفع الاشجار اذاً كبير من وجوه عديدة ولهذا يشير علماء الصحة بغرس الاشجار في جانبي الشوارع العريضة ويراعون حيث غرسها هندسة خاصة كي لا تنسر في البيوت المجاورة لها فتنزع عنها الهواء والنور . ان هذه القضية أهميتها فقد كانت موضع درس دقيق سبب المؤتمر الصحي الألماني الذي عقد سبب درسد (Dresde) سنة ١٨٨٣ وفي المجمع الصحي الدولي الذي عقد سبب بروكسل عاصمة بلجيكا سنة ١٩٠٣ .

فإذا كان للأشجار التي تفرس على جانبي الشوارع والأسواق هذه الفائدة الكبرى على الرغم من قلة عددها فما عساها ان تكون فائدة الحدائق العامة الفسيحة . ان هذه الحدائق ، هذه الاماكن المتسعة حيث الهواء حرٌّ مطلقاً وأشعة الشمس حارة ترطبها نفحات النسيم البليل المتلاعب باغصان الأشجار . حيث يجلس الانسان لترويح النفس نظائله الأشجار المورقة المزهرة حيث لتنفس الرئتان لنفساً عميقاً يدفع الانسان منهما الهواء المشبع بخامض الكربون ويستبدله بهواء نقي ، حيث يلعب الأولاد ويركضون على ذلك البساط الأخضر النضير ، هبة ثمينة لا ندرك قيمتها تؤثر في صحة الأبدان فحسبها ، وترويض الافكار فتجولها فتأثيرها اذا جسدي ونفسي في آن واحد .

ان هذه الاماكن تخفف بعض الازدحام الذي نراه في قلب المدينة ذلك الازدحام الشديد الضرر الذي كلما ارتقى علم الصحة ظهر ضرره وسُعي الى اجتنابه ولهذا اكثرت العواصم الكبرى والمدن التي تسوسها حكومة راقية من هذه الحدائق المتسعة غير ناظرة الى المخازن والمساكن والأسواق التي تهدمها ولا مبالية بما لها من الأثمان الباهظة ولا مليحة عاطفة محبة المال والثروة ولكنها تجيب ما نطلبه الصحة العامة فننشئ هذه الحدائق التي لا تكسبها بارة واحدة في السنة ولكنها بعكس ذلك تضطرها الى نفقات طائلة لتبقى محافظة على نظارتها وجمالها .

فان في باريس ستاً واربعين حديقة مساحتها ستة وعشرون ألفاً وثلاثمائة متر مربع وفي لوندرة أربعين حديقة مساحتها اكثر من مساحة حدائق باريس بألف متر مربع وفي برلين عشرين حديقة تعادل مساحتها خمسة وخمسين ألفاً وأربعمائة متر مربع اي ضعف مساحة حدائق باريس هذا عدا أحراج سبانداو (Spandau) وغرانوالد (Grunwald) التي تعادل مساحتها نصف مليون متر مربع .

الا اننا في دمشق لا نجد سوى حديقة واحدة لا تزيد مساحتها عن خمسمائة متر مربع وشارع واحد مشجر لو لم يشق في زمن لم يكن للشعب فيه حق الاعتراض لما كان لدمشق مع غرارة مياهها وخصب ارضها منفس بنفس فيه سكنها الهواء النقي . ان شارع النصر قد حوّل حالة الدمشقيين تحسباً لا بكتسب بالادوية والغذاء وغيرهما فيما حبذا لو كان في هذه المدينة منه عشرات غير ان ما يفيض بعض الاعاضة عن هذه

الحدائق والشوارع هو الجنائن البدعة التي تطوق دمشق وتوجد في بعض أحيائها ولولاها لكانت دمشق لا تصلح للسكن .

أما الساحات الكبيرة الحرة فلا أثر لها عندنا وباللهاسف واذا تكلمت عنها فأنني ألس مسألة أخرى جلية الفائدة في المدن وهي هندسة الشوارع هندسة حديثة الا انني لأريد التعرض لهذا البحث في محاضرتي هذه لانه موضوع يستغرق محاضرات وانما اقول كلمة عنه لابين لكم كم هو عظيم اهتمام البلاد الراقية بهذه النقطة الاساسية وكم هو كبير اهمالنا . ان موسيو بوكيا (Beauquia) احد اعضاء المجلس النيابي الفرنسي اقترح سنة ١٩٠٩ أن يرسم لكل مدينة يزيد عدد سكانها عن عشرة آلاف نسمة مصور يبين فيه مساحة المدينة وحدائقها العامة واتساعها وعرض طرقها واستقامة تلك الطرق وطرز بناء بيوتها وبكلمة واحدة كل ما يتعلق بتلك المدينة وما يجمع بين جمالها الظاهر وحالتها الصحية وان يطبق هذا المخطط تطبيقاً دقيقاً لا يقبل الاعتراض ولا تراعى فيه مصالح الافراد فهل افكر اولياء الامور عندنا بوضع مخطط مختصر تحسن به حالة بعض الاحياء التي لاتسكن في دمشق ولنفرض ان مر ذلك الفكر في مخيلتهم فهل يبرز منه شيء الى حيز العمل !

لست أجهل أيها السادة ان وضع مخطط كهذا يضطربنا الى هدم مدينتنا جميعها غير ان من الامور ما هو مهم وأهم فاذا كان اتباع خطة واحدة في الاسواق وطرز واحد في البناء وعلو واحد في المساكن مهما يكسب المدينة رونقاً وجمالاً وهواءها جودة فإت تخطيط بعض الأسواق العريضة التي تكثف الاشجار جانبها وغرس بعض الحدائق العامة الفسيحة في قلب المدينة وايجاد بعض الساحات الحرة المتسعة وكشف الأسواق الضيقة التي لم ندخلها أشعة الشمس منذ بنيت وعدم السماح بتغطية ما هو مكشوف منها لمن الامور الشديدة الاهمية التي لا غنى عنها . وانني أعجب ولعلكم تعجبون معي كيف ان ما أصحته الطبيعة فكان لهذه المدينة مصدراً للصحة نفسها نحن بآبدينا كيف ان يد الطبيعة أسقطت سقف السوق الحميدية رحمة بمن فيها من التجار ومن يمر بها من البشر في كل يوم وكيف ان الحكومة سمحت باعادة هذا الغطاء وحرمان تلك المحازن من أشعة الشمس المنعشة . امر لم أجده مسوّغاً في قوانين البلاد الراقية .

(٣) أجوز الآن الى المؤثر الثالث وهو الغبار وتأثيره في هواء المدن = از الغبار

المنشور في الهواء ينقل معه كثيراً من الجراثيم المرضية متى عصفت الريح ووجدت المجاري الهوائية فتدخل تلك الجراثيم البهوت بطرق متعددة باحثيننا وأثوابنا وبشرة أجسادنا والحيوانات الداجنة وكل ما في الأسواق من البضائع والمواد الغذائية وتدخل الجراثيم أيضاً البهوت مع الهواء من النوافذ ولهذا كانت البهوت المشيدة على جانبي الطرق التي يكثر فيها الغبار والتي تطرقها السيارات كثيراً معرضة أكثر من سواها لهذه الجراثيم وكان أهلها معرضين أكثر من غيرهم للأوبئة والأمراض . وإن ما يزيد في الطين بلة هو أن سكان تلك البهوت يغلقون النوافذ ويحكمون سدّها حذراً من دخول الغبار منها فيفسد الهواء في مساكنهم ولا يعود صالحاً للتنفس فيقعون وهم يطلبون التخلص من شرّ كبير في شرّ أكبر . ولا يؤثر الغبار في الإنسان والحيوان فقط بل يؤثر في النباتات أيضاً لانها تنفس ككلها فان الاشجار متى كسا أوراقها الغبار تذوي وتموت وإذا لم تمت تضعف خاصة التنفس فيها فتفقد وظيفتها الأساسية وهي تجديد الاوكسجين وتنقية الهواء الذي يتنفسه الانسان .

ليس الغبار سوى ذرات الأوحال الجافة التي لا يخلو منها مكان من أمكنة دمشق فإذا عاينا تلك الذرات وجدنا فيها أشياء كثيرة رأينا المواد العضوية والجير والبوتاس والصوان والخزف والمواد المعدنية والحامض الفوسفوري والحامض النحسي وغيرها ووجدنا معها وهذا ما يهمنا أصراً كمية عديدة من الجراثيم المختلفة الأنواع . فقد تبين من تحري الدكتور ايتكن (Aitken) ان كل سائمتير مكعب من الهواء يحتوي في باريس على مائتين وعشرة آلاف ذرة غبار وانه في لوندرة لا يحتوي الا على مائة وخمسين ألفاً لا غير . اما الجراثيم الموجودة فيه فتبلغ مليونين واربعائة الف جرثومة فاعساها ان تكون حالة الهواء في دمشق والغبار في طرقاتها يجذب نور الشمس ويدخل الصدور بلا استئذان فاذا سارت عربية تركت وراءها ذبلاً من الغبار طويلاً او نهبت سيارة الارض طائفة عليها التلحفت بغطاء من الغبار يسترها والبست المارين منه ثوباً لطيف النسيج .

تدخل ذرات الغبار أجسادنا بطريقتين : طريق التنفس وطريق الهضم . قد ثبت في اكثر الاوقات ان انتقال السل يتم بالهواء اي بذرات الغبار التي ننقل معها عصية

كوخ او العامل السلي وقد ثبت ايضاً من المشاهدات السريرية ان تسمية وتسعين في المائة من المسلولين ينتقل السل اليهم بواسطة الهواء الذي ينقل هذه الذرات الي أفواههم فيبتلعونها او الى رئاهم فيستنشقونها . ويثبت تحريات فلوغ (Flugg) ايضاً ان عدوى السل بطريق التنفس لا تنشأ فقط من فُشاعات المصدورين التي بعد ان تجف وتبددها الريح تُنقل مع الهواء فتدخل رئائنا بل تنشأ ايضاً من النفثات الصغيرة التي يرشها المسلول في الهواء أثناء السعال فننقل العدوى الى بضعة أمتار .

ولا تظن ان السل وحده ينتقل بالهواء فان كثيراً من الامراض ينتقل به ايضاً فالحمى التيفية مثلاً تنتقل بالماء والبقول الملوثة كما يعلم جميعنا الا انها تنتقل بالهواء ايضاً وقد اثبتت هذه القضية تحريات برواردال وميكل ولافران وشانجاس وهي تنتقل بضاً بالغاز المنبعث من المراحيض كما اثبت ذلك الدكتور تيكبورت (Tich borne) وبعلامسة المريض وكل ما تلوث من أثوابه وفراشه .

اجل ان انتقال الحمى التيفية بغبار الهواء امر قليل الوقوع لا يعادل انتقال السل به غير ان جرثوم الحمى التيفية شديد المناعة لا تؤثر به حرارة الشمس تأثيرها بجرثوم السل الذي لنقله يبضع ساعات ولهذا كان خطر انتقاله بالغبار موجوداً . وكذلك الخلفة اي لدوسنطاريا التي أجمع الجميع على انتقالها بالماء نراها تنتقل بالهواء ايضاً ولا سيما في من يتعرضون للغازات المنبعثة من المراحيض او بمجارروث الاقذار والمواد الغائظة التي تلتقي في الأسواق من آن الى آخر بمنظرة رحمة الشمس لكي تبخر ما فيها من المياه القذرة وتجففها فيُسمى عندئذ الى نقلها .

والسعال الديكي (او الشهقة) هذا الوباء الشديد الانتشار الذي يسري باللمس ، قد ينتقل بذرات الفشاعات التي يرشها المريض أثناء نوب السعال وزد على ذلك ان المواد التي ينفثها المريض وهي التي ننسب اليها السراية لتطايير ذراتها بالهواء بعد ان تكون قد انصفت بالأثواب وجفت فننقل العدوى .

وذات الرئة تنتقل ايضاً بالهواء وهي مرض ينشأ من جرثوم مرضي خاص يكون في جهاز التنفس فينث مع فُشاعات المريض وينقل بها بعد ان تلتقي على الطرق العامة فتجف ويبدها الهواء . وان ما يساعد على انتشارها شدة مقاومة هذا الجرثوم فهو يبقى

محافظة على قوته الحيوية اياماً عديدة وربما شهرين كاملين متى كانت في مأمن من نور الشمس وملامسة الهواء والاكسجين وهذه الشروط نراها موجودة في شقوق البلاط وفي تلال التراب المكسدة على زوايا الطرق والأسواق .

اما النزلة الوافدة اي الحمى الاسبانية فلم يجمع كل الأطباء على انتقالها بالهواء فمنهم من صنف هذا الداء بين الامراض التي تنتقل بالارياح العاصفة والمجساري الهوائية الشديدة ومنهم من قال ان ذرات التراب الملوثة بعامل بقايفر اي عامل النزلة الوافدة لا تنتقل الا الى بعد قليل فهي لا تتمكن والحالة هذه من نقل المرض ومما يكن فان عامل هذا الداء يلقى كسواء على الطرق العامة مع قشاعات المرضى وبصافهم .

اما الجدري فان عامله ينتقل بالهواء أيضاً بالذرات الصغيرة الناشئة من مفوزات البثور وفلوسها فانها تطاير مع الهواء ناقلة المرض وعامل الجدري شديد المقاومة يلتصق مدة طويلة بالاجسام والاشياء كجدران البيوت والالبسة والاثواب والادوات دون ان يفقد شيئاً من قوته وهذا يبين لنا كيف ان هذا المرض متى دخل بلداً طالَّت اقامته فيه فينتطفي آتية ثم يظهر أخرى دون سبب ظاهر وعدواه ثم غالباً بطريق النفس . وهكذا يقال عن الخناق اي الدفتيريا فانها تنتقل بالهواء .

واخيراً الطاعون الرئوي هذا الوباء الهائل الذي يفتك متى انتشر بمئات الالوف والملايين فانه ينتقل بالهواء الى جهاز النفس ويعتقد كثير من الاطباء ان الحمى الاسبانية التي استولت على اوربا سنة ١٩١٩ ولم يقل عدد ضحاياها عن خمسة ملايين لم تكن الا طاعوناً رئوياً حتى ان حكومة الولايات المتحدة حيث كان نفشي المرض شديداً اجبرت جميع ساكنيها على ان لا يظهروا في الاسواق الا وعلى انوفهم وافواههم خمار مبلل ببعض المواد المضادة للفساد وهكذا تمكنت من حصر المرض وتخفيف وطأته .

ولا تنتشر الجراثيم بالارياح فقط بل تنتشر ايضاً بطرق أخرى منها نفث الطنafs في الشرفات والنوافذ وندف القطن والصوف الحشوة بها لحف المرضى وفرشهم في المخازن المشرفة على الطرق العامة فيترنّب على الحكومة منع مثل هذه الاشياء منعاً باتاً مما كانت مراعاتها شديدة الصعوبة .

ولكن على الرغم من امتلاء الهواء بذرات الغبار الملوثة وعلى الرغم من استنشاقنا هذا الهواء

ودخول الجراثيم الى اعماق حو بصلاننا الرئوية نرى انتشار الامراض قليلاً لا يناسب كثرة هذه الجراثيم وما ذلك الا لانها تتلف بعد وصولها الى اعماق الرئة فان الطبيعة جعلت الدواء الى جانب الداء ولهذا كانت للفرزات الشعبية خاصة قاتلة للجراثيم .

هذا ما رغبت بطرحه امامكم في هذه المحاضرة من الامور الصعبة ومنها استنتجون ان الطبيعة لم تضن على دمشقنا بجودة الموقع الجغرافي ولا بالارتفاع عن سطح البحر ولا بتركيب أرضها الجيولوجي الموافق ولا بالانهر العذبة النافلة مع مياهها خصباً وهواء نقياً ولا بالارياح العاصفة التي تهب الانسان بهوبها حياة جديدة وانما نحن الذين ضنوا عليها بكل ما يؤثر في هوائها فيصلحه ضننا عليها بالأسواق المتسعة الفسيحة ضننا عليها بالساحات الكبيرة والحدائق الكثيرة ضننا عليها بتنظيف شوارعها من الأوحال الحاضرة او الغبار القتال المقبل ضننا عليها بما هو أعظم من كل هذا وبما لم أبينه في محاضرتي نظراً لضيق الوقت فاذا نفشت الاوبئة فيما بيننا فليس الذنب الا علينا اوساء الصحة العامة فلا تعود تبعه هذه الاساءة الا اليئسا فعسى ان يكون المستقبل باسمنا لا عبوساً كالماضي فنرى سبب دمشق حياة جديدة تدب في أسواقها حياة ترقى يرقى علم الصحة بين أفرادنا . فعسى ان ينذبه الزملاء الكرام الى سدة هذه الثمة فيكثرون من المحاضرات الصحية فهي لعمري اكثر ضرورة وأعظم فائدة من المحاضرات العلمية والادبية والشعرية وغيرها لانها تحفظ حياة الشعوب ولا تقدم لشعب يحصد منجل الامراض من شبانه الاذكياء النابغين ومن شبانه الممتهدين الادبيات فعسى ان يسعدني الحظ في المستقبل فأقوه بواجب يفرضه عليّ الفن الذي أنتسب اليه والتي في ناديك الموقر من آن الى آخر محاضرات أخرى مختلفة الموضوعات تمنح للسيدات نصرة جمالهن وللشبان قوة عضلاتهم والله الموفق في كل حال .



آراء وافكار

ذات الزيتون

« هي الزيتونة »

هل ذات الزيتون هي الزيتونة ؟ ذلك ما لا ريب فيه البتة . فانا أوافق عليه الاستاذ عارف النكدي كل الموافقة . ولا بأس بان أبسط هنا ما كنت عثرت عليه في هذا الشأن الجغرافي . فقد روى ابن خردادبه في كتابه المسالك والممالك (ص ٧٤ من طبعة ليدن) ان لقدير الرصافة والزيتونة وكفر حجر والجزيرة الف دبنار . وقال المسعودي في كتابه التنبيه والاشراف (ص ٣٢٢ من طبعة ليدن) ان الرصافة من ارض قنسرين . فلم يبق من ريب في ان الزيتون تابعة الرصافة وان الرصافة قد كانت من جند قنسرين اي من سورية الشمالية او سورية الفراتية .

وقال البلاذري في كتابه فتوح البلدان (ص ١٧٩ - ١٨٠ من طبعة بريل) اما رصافة هشام فان هشام بن عبد الملك احدها وكان ينزل قبلها الزيتون . وقال ياقوت الرومي في معجم البلدان الرصافة في مواضع كثيرة منها رصافة هشام بن عبد الملك في غربي الرقة بينها اربعة فراسخ على طرف البرية بنسائها هشام لما وقع الطاعون بالشام وكانت يسكنها في العيف كذا ذكره بعضهم . قال ووجدت في اخبار ملوك غسان ثم ملك النعمان بن حارث بن الابهيم وهو الذي اصلى صهاريج الرصافة وصنع صهر يجها الاعظم وهذا يؤذن بانها كانت قبل الاسلام بدهر ليس بالقصير ولعل هشام عمر سورها او بنى بها ابنية يسكنها ^(١) . . . وقد اصاب ياقوت كل الاصابة فقد عرفت الرصافة في العهد الروماني (بسرجيو بوليس) نسبة الى الشهيد سرجيس . قال وقال احمد بن يحيى واما رصافة الشام فان هشام بن عبد الملك احدها وكان ينزل فيها الزيتون وقال ياقوت في الزيتون موضع كان ينزله هشام بن عبد الملك في بادية الشام فلما عمر الرصافة انتقل اليها .

(١) ولعل هشام عمرها وقد كانت قبله خربة او مقفرة وهذا ينقض الاشكال من كل وجه كما لا يخفى .

فالزيتونة التي دعاها عبدالرحمن حفيد هشام (ذات الزيتون) هي قريبة من الرصافة (او من قراها) على نهر الفرات الاعظم .

قال الرصيف الاستاذ السيد عارف النكدي في محاضراته الرائعة الاندلس (حاشية ص ٣٣٤ من مجلة المجمع العلمي) لم اجد فيما عندي من الكتب ما يعرف منه موضع ذات الزيتون . وفي معجم البلدان الزيتون موضع كان ينزله هشام بن عبد الملك في بادية الشام فلما عمر الرصافة انتقل اليها فكانت منزله الى ان مات . ونسأل الاستاذ بعده فهل الزيتون هي ذات الزيتون ؟ قال ان عبدالرحمن مات ابوه وهو صغير فكمله جده هشام صاحب الزيتون فاعمل الموضعين واحد (وهو الصحيح الذي لا غبار عليه) فيكون عبد الرحمن قد لجأ الى موضع له سابق عهد فيه والله اعلم .

واما قول الاستاذ الآخر (او ان ذات الزيتون في جبل حوران المعروف بجبل الدروز) . . . فإخاله بعيداً عن الصحة والصواب والذي خدعه قول عبدالرحمن الاموي (ففر من الزيتون او ذات الزيتون الى فلسطين) . . .

في حين ان عبد الرحمن يقصّ هو نفسه قصة هربه فيقول : انه صار الى قرية على الفرات ذات شجر وغياض . الى ان قال انه دخل بساتين على الفرات فسبق الخيل الى الفرات فسبح فيه ونجا هو بنفسه والخيل ينادونه بالامان وهولاي رجوع اماخوه فانه عجز عن السباحة في نصف الفرات فرجع اليهم واخذوه فقتلوه . فليس من مجال للشك والتردد بعد هذا القول الواضح في ان الزيتون او ذات الزيتون كانت على الفرات الاعظم او قريبة منه في بادية الشام كما قال ياقوت وغيره . واين هذه — وهي على الفرات — من ذات الزيتون في جبل حوران او جبل الدروز كما لا يخفى .

وأقف من التحقيق عند هذا الحد فقد ثبت ان الزيتون هي ذات الزيتون وان موقعها على الفرات او هي قريبة منه في بادية الشام وبهذا القدر غنى وكفاية للتأمل البصير ان شاء الله تعالى .

الخطوري جرجس مناش

حلب :

عضو المجمع العلمي



جواب علي سؤال

اطلعت على سؤال الخصرة الاستاذ محمد راغب الطباخ عضو المجمع العلمي في الجزء السابع (ص ٤٤٠) من مجلة المجمع العلمي المجلد التاسع يسألني فيه عن كتاب (مناقب بغداد) لعبد الرحمن بن الجوزي هل هو المذكور في ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب؟

نعم تصفحت ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب فوجدت فيه ترجمة حافلة لعبد الرحمن ابن الجوزي المذكور تقع في زهاء ٣٠ صفحة بالقطع الكامل وقد ذكرت فيه مؤلفاته التي تبلغ نحو ٤٠ مؤلفاً ومنها (مناقب بغداد) الذي حصلت الضجة بسببه و بشأن نسبته الى حفيد ابن الجوزي المسمى باسمه وكنيته ولقبه .

لهذا لم يبق ادنى شك في صحة نسبة كتاب (مناقب بغداد) الى مؤلفه عبد الرحمن ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ لا الى حفيده المذكور المتوفى سنة ٦٥٤ هـ لان النسخة التي اعتمدنا عليها في المراجعة كُتبت في القرن الثامن للهجرة وان ما حققه الاستاذ الشيخ محمد راغب الطباخ هو الصحيح لا شبهة فيه .

حسني الكم



مطبوعات حديثة

تاريخ الموسيقى العربية

« الى القرن الثالث عشر »

A History of Arabian Music
To The XIII th Century

ألف هذا الكتاب القيم باللغة الانكليزية الاستاذ هنري جورج فرمر وبحث فيه عن تاريخ الموسيقى العربية من ايام الجاهلية الى القرن الثالث عشر م . وقد قسم الكتاب الى خمسة أبواب : الباب الاول عالج فيه تاريخ الموسيقى في الجاهلية وهي فترة كالايجني غامضة ولكنه مع ذلك جمع ما أشئت في كتب الادب والتاريخ من اخبار الغناء وذكر آلات الموسيقى المعروفة اذ ذاك عند العرب في اليمن والحجاز والحيرة والشام وذكر بعض من عُرِفَ بحسن الصوت .

وذكر في الباب الثاني (الاسلام والموسيقى) واكثر ما عالج فيه حكم الغناء من حيث الاسلام مع ذكر أدلة الاباحة والخطر وما ذهب اليه الائمة الاربعة ثم رأي المتصوفة في السماع وأشار الى من عرف بحسن الصوت ايام النبي عليه الصلاة والسلام .

وصور في الباب الثالث حالة العرب الاجتماعية ايام الراشدين وذكر الفتوح التي تمت على عهدهم واختلاط العرب بالفرس والروم وظهور الغناء العربي المنقن بعد ان كان ضرباً من الخداء والتطريب والنوح وذكر عزوف الخلفاء الراشدين عنه لاشتغالهم بالفتوح وأشار الى من ارتاح اليه من الصحابة كعبد الله بن جعفر وأجل تراجم المغنين في ذلك الدور كطويس وحنين وعزة الميلاء وسائب خاثر وغيرهم .

قال واما اخذ العرب عن الفرس فلم يكن من حيث القواعد الموسيقية ولكنهم ربما سمعوا النغمة الفارسية فاستعاروها بعد ان عالجوها بالعقل والتهذيب والتعريب .

وأحصى اسماء الآلات الموسيقية على اختلافها كالمزف والمزفة والمزهر والعود والطنبور والقصة والمزمار والبوق والقضيب والدف والصنج والطبل .

وذكر في الباب الرابع خلفاء بني أمية واحداً بعد واحد بعد ان أجمل تصوير الحالة

الاجتماعية اذ ذاك وأشار الى ما كان من نشييط الخلفاء للغناء . وقال ان أثر الفرس في الموسيقى العربية كان في الآلات أكثر منه في الغناء نفسه . وترجم لطائفة صالحة من كبار المغنين في ذاك العهد كابن مسجج وابن محرز وابن سريج والغريز ومعبود وابن عائشة ويونس الكاتب ومالك بن ابي السمح وجميلة وسلامة القس وحسابة وسلامة الزرقاء .

فلما انتهى الى العصر العباسي قسمه الى ثلاثة عصور : العصر الذهبي وهو من سنة ٧٥٠ الى ٨٤٧ م وعصر الانحطاط من ٨٤٧ الى ٩٤٥ وعصر السقوط من ٩٤٥ الى ١٢٥٨ . قال المؤلف ان قيام بني العباس فسخ الميدان للفرس وجعل الفكر الآري يسود الفكر السامي واذ ذاك وقف الفن العربي الخالص وظهر في الشعر العربي اثر للفكر الفارسي . قال واما الغناء العربي فلم يظهر به تلك المؤثرات الا بعد زمن طويل وربما كان منشأ ذلك ان الموسيقيين كانوا صنفاً خاصاً من الناس ممتازين ومنعزلين عن غيرهم لحافظوا على الصبغة العربية في الغناء . قال وما يستحق الذكر ان مخي العصر الذهبي كانوا عرباً بالعصر او بالبلاد وجاء أكثرهم من الحجاز وطن الفن العربي .

ثم أجمل موقف خلفاء العصر الذهبي من الموسيقى ونشيطهم لها قال ومن دواعي تقدمها ميل المأمون لعلوم اليونان وانشائه بيت الحكمة في بغداد وترجمة علوم اليونان ومن جملتها الموسيقى ، وذكر الواثق ونوه بخدمته للفن وقال : بوفاته انقضى عصر الاسلام الذهبي الذي لو قاسنا بين حضارته وبين حضارة اوربا في ذاك الحين لوجدنا حضارة اوربا ليست سوى بربرية . وترجم لكثير من كبار المغنين كاسحق الموصلي وابراهيم بن المهدي وغيرهم .

ولما أتى الى دور الانحطاط العباسي ذكر كيف تفككت عرى المملكة الاسلامية واستقلت أكثر أقطارها في الشرق والغرب تحت طاعة الخليفة الاسمية وأشار الى تلك الدول وأخذها بهدالادب والموسيقى كالدولة السامانية والحمدانية والطولونية والارشيدية والدول التي قامت في الاندلس . قال : وفي ذاك العصر نبغ ابو الفرج الاصفهاني صاحب كتاب الأغاني وابن فرناس العالم الموسيقي . وفي ذاك العصر ازداد النفوذ الأعجمي في الثقافة العربية ومنها الغناء . قال : ولكن مهبط العرب عن الفرس

فهمؤلاء مدينون للعرب أضعاف ذلك ليس في الدين فقط بل بالعلوم والفلسفة والفنون الجميلة .

ومن خصائص تلك المدة الاستعانة بعلوم اليونان فيما يتعلق بالنظريات الموسيقية وشرح المؤلف ذلك شرحاً وافياً .

ثم ختم كتابه بالمصر الذي دعاه عصر السقوط وذكر ان أسماء الانعام المصطلم عليها في كتاب الأغاني تغيرت وأضحت فارسية مع ان الموسيقى ظلت عربية وأشار الى الدول التي كان لها فضل على الموسيقى كالدولة الفاطمية في مصر والأيوبية - في الشام مع الاشارة الى من الف في الموسيقى وترجمة المغنين والمخترعين وما اخترعوه من الآلات كل ذلك بأسلوب بارع وترتيب حسن وتفصيل وافٍ . فيـ احبذا لو يتاح لهذا الكتاب النفيس من ينقله الى العربية .

خليل مردم بك

فهرس المكتبة البلدية

« في الاسكندرية »

طبع بمطبعة شركة المطبوعات المصرية بالاسكندرية

سنة ١٩٢٦ - ١٩٢٩

هذه الفهرس ترتيب وتصنيف الاستاذ الفاضل السيد احمد ابي علي امين المكتبة المذكورة وهي تشمل على ثمانية واربعين عملاً في ستة مجلدات بـطعم هذه المجلة ومجموع صفحاتها ٢٠٤٠ وهي مرتبة ترتيباً حسناً على الحروف الهجائية في كل فن على حدة كترتيب فهرس دار الكتب المصرية وقد وصفت الكتب التي ورد ذكرها في هذه الفهرس وصفاً موجزاً مع ذكر شيء من حياة مؤلفها وتاريخ وفياتهم فجاءت هذه الفهرس حسنة بما فيها من دقة الملاحظة وسهولة المراجعة على الباحث في كل ما يهجه اسره .

فللاستاذ الموما اليه الشكر الجزيل لتوفره على طبع هذه الفهرس التي طالما تافت النفوس الى وصفها والاطلاع على ما تحوي عليه من الكتب النفيسة .

حسني الكسم

اهداء مجموعة مخطوطة

أهدى السيد أمين الخانجي الكتبي المشهور الى مكتبة المجمع العلمي مجموعة لتضمن الرسائل المخطوطة الآتية :

(١) (قلائد المرجان في الناسخ والمنسوخ من القرآن) تصنيف الشيخ مرعي بن يوسف المقدسي الكرمي الحنبلي . فرغ المؤلف من تصنيف كتابه هذا يوم ٤ شوال سنة ١٠٣٣ في الجامع الازهر .

(٢) (الشجرة المفردة في المسائل المتنوعة) تأليف الشيخ محمد زين العابدين العمري سبط المرصني ألفه سنة ٩٦٧ هـ وذلك عندما زار السيد البدوي ورفعه اليه عند قبره قرطاس فيه أسئلة شرعية متنوعة فأجاب عليها في هذه الرسالة .

(٣) (السبيل المبين في حكم صلة الامراء والسلاطين) وهي رسالة صغيرة للمؤلف السابق بحث فيها عن حكم الجوائز والصلوات التي يأخذها العلماء والصوفية من الملوك والامراء .

(٤) (الميثاق والعهد) في شرح من تكلم في المهد) تصنيف الشيخ احمد بن ابراهيم البرماوي وهو شرح أبيات السيوطي التي اولها :

تكلم في المهد النبي محمد ويحيى وعيسى والخليل ومريم الخ

(٥) رسالتان للشيخ عثمان الفجدي الحنبلي : احدهما في أحكام (اي) المشددة وإعرابها وبنائها وغير ذلك . والثانية في أحكام (لو) واسم الرسالة (كشف الضوع عن معنى لو) .

(٦) كتاب (تحقيق الرجحان بصوم يوم الشك من رمضان) تصنيف الشيخ مرعي ابن يوسف الحنبلي المقدسي الذي سبق ذكره .

(٧) (رفع الاستار المسدلة عن مباحث البسملة) تصنيف الشيخ اسماعيل الغنيحي ابن الشيخ غنيم الجوهري .

(٨) كتاب منتهى العقول في منتهى النقول تأليف الامام السيوطي : فهو يسرد في هذا الكتاب اسماء الاشياء التي بلغت الكمال او العظم او الشدة في امر من الامور

ثم يشرح بالاختصار ذلك الامر الذي امتاز فيه ذلك الشيء . مثال ذلك أن يقول :
(منتهى المدائن الاسلامية بغداد) ثم يشرح لك مزاياها على البلاد . و (منتهى الفتن
الاسلامية فتنه النثر) ثم يشرح ذلك و (منتهى الحشرات عقرب تسمى الجرارة) ثم
يصف مبلغ اذى تلك العقرب وهكذا لكن النسخة كثيرة التحريف والتخفيف .

(٩) قصة هرون الرشيد مع الاعرابي وهي مخرومة وليس منها سوى صفحة واحدة .

(١٠) (مكتوب الى هرون الرشيد) يتضمن عظات ونصائح

(١١) (قصة اهل الكهف) تتضمن غرائب وعجائب .

(١٢) كتاب في العقائد المختصر مؤلفه من عقيدة الشيخ عبد الله بن محمد بن محمد

ابن احمدا (كذا) ولعل المؤلف المختصر هو الشيخ محمد بن بلبان كما يفهم من هامشة
على ظهر الكتاب .

(١٣) رسالة في الادعية الماثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم للشيخ النواوي .

انتهت الرسائل وان المجمع لشكر للمهدي هديته .

وأهدي الينا ايضا كتاب (مبادئ علم الحياة) تصنيف الاستاذ الفاضل جلال امين
زريق مدرس الرياضيات في دار المعلمين العليا والمدرسة الثانوية في بغداد . والمؤلف من
شبان سورية العاملين في ترقية الأذهان ونشر العلم وقد عرفت الحكومة العراقية قدره
فهي تستفيد من معارفه الواسعة في العلوم الرياضية فنلت انظار المتخصصين في هذه الفنون
الى كتابه النفيس .

وكتاب (فتاوى الامام النواوي) المسماة (بالمسائل المنشورة) من ترتيب تليذه الشيخ
علاء الدين ابن العطار . وقد طبع الكتاب على نفقة مكتبة عرفة . بعد ان صحح على
ثلاث نسخ خطية وشهرة ابن تيمية ودقيق أبحاثه الدينية في مصنفاته لاحتياج النواوي .
وأهدي الينا (ديوان الوطنيات) لناظمه الشاعر الاديبي السيد محمد ناجي الجم
الطرابلسي وموضوعات شعره تدور حول الوطنية والمواطف والأخلاق وقد زينته
بصور كثير من رجال العرب وأديانهم وافتحه برسم جلالة الملك حسين الذي أهدى
الناظم ديوانه اليه .